لمحات من حياتي

سيرة شبه ذاتية

بقلم

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

لمحات من حياتي

سيرة شبه ذاتية

١

لم يدر بذهني يوما أن أكتب هذه المذكرات ، فأنا شخصيا لا أرى فى حياتى ما يستحق الرواية . ولكن حدث فى الأسبوع الماضى أن قصد إلىّ مذيع ليدير معى حديثا عن حياتى استغرق حوالى الساعة . وتركت نفسى على سجيتها . ورحت أروى للميكرفون بعض ذكريات من حياتى كان بعضها يمسك برقاب بعض وتستدعى الذكرى صاحبتها . ولاحظت أن المذيع يضحك فى سعادة غامرة مما أروى . فلما انتهى الحديث ساءلت نفسى : ومالى لا أروى هذه الذكريات لقارئ ربما وجد فيها من المتعة ما وجده هذا المذيع ؟

والذى بينى وبين القارئ أمر ميسور ، فهو يستطيع أن يضم دفتى الكتاب الذى بيده ويقطع صلته به ، وأذكر له بيت الشعر القديم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وحسبه الله بعد ذلك فيما خسر من ثمن الكتاب ، فإن وجد المتعة التى أتمناها له وأنشدها وأسعى إليها فالحمد لله على الحالين وليمض فى قراءة الكتاب .

وربما زاد من ترددى كتاب كتبته قبل هذا بعنون : « ذكريات لا مذكرات » ولكنى قضيت على هذا التردد بأن كتابى الأول كان يحمل

صلاتى بمن عرفتهم من مشاهير وغير مشاهير .

ولكننى أعتقد أن هذا لن يكون المنحى الذى سأنحوه فى كتابى هذا الذى بين يديك . أما كيف أنحو فعلم هذا عند علام الغيوب فما خططت خطة بذاتها ولا انتهيت إلى رأى معين ، وإنما سأسير وإياك عبر أيامى منذ وعيت الحياة حتى اليوم الذى بدأت فيه كتابة هذا الكتاب ، وإنى إن شاء الله واجد له عنوانا . ولكنك لا بد أن تعلم أن هذا العنوان قفز إلى ذهنى وأنا أكتب هذا الكتاب ولم أضعه قبل بدء الكتابة كما ينبغى أن أفعل . فقد خشيت أن يحول العنوان بينى وبين التَّرسل الذى أحب أن أتركه يحدو قلمى ، ويسير به سيرا متحررا من كل قيد بعيدا عن القيود جميعها .

من الطبيعى أن أبدأ بالسنوات الأولى من حياتى :

* * *

قيل لى إننى وُلدت بمنزل بشارع جوهر القائد بحى المنيرة ، ولكننى لم أر هذا البيت إلا مرورا به ، أشارت إليه والدتى وكنت أركب معها السيارة ، وقالت إننى ها هنا ولدت . فما وعيت منه إلا اللمحة العابرة التى تتيحها سيارة تمضى فى طريقها ولا تتوقف . أما البيت الذى نشأت فيه وأقمت فبيت كان ملكا لأبى بشارع الملك الناصر رقم ٢٤ بحى المنيرة أيضا ، وكان البيت هو المبنى الثانى فى الشارع من ناحية الدواوين ، وكان المبنى الأول مدرسة أهلية دخلتها وانتظمت فيها لبضعة أشهر ، وقد كان المبنى المقابل لها مستشفى الملك ، ولا بد أن اسمها قد تغير حين أرادت الثورة حذف الملكية من تاريخ مصر . وكان يلاصق المستشفى مدرسة الخديوى إسماعيل التى لا أدرى اسمها الآن هى أيضا ، فإن الثورة قررت أنه لم

يكن فى مصر خديو اسمه الخديوى إسماعيل إلا أن يذكر مشتوما ملعونا .. أما أن يذكر بدون تعليق فأمر لا ترضاه الثورة الاشتراكية .

نشأت فى هذا البيت ودخلت المدرسة الملاصقة لبيتنا ، وأذكر أن والدى ووالدتى كانا يطلان علىّ من إحدى نوافذ بيتنا ، وكان أبى يحرك لى منديلا فى يده حتى أنتبه إلى وجودهما بالنافذة .. وأذكر أننى فى اليوم الأول لذهابى إلى هذه المدرسة رفضت أن أذهب إلا إذا صحبت محمد أبو عثمان الذى كان يعمل طباخا فى بيتنا ، وكان يلاعبنى ويضاحكنى وكنت معجبا به كل الإعجاب .. وهو ما زال على قيد الحياة أطال الله عمره . وقبل ناظر المدرسة أن يدخل محمد أبو عثمان الفصل معى ، وكان فى الفصل يقف بجانب الباب فكان وقوفه هذا يرد عنى الوحشة التى كانت تلم بى وأنا مع تلاميذ لا أعرفهم ولا يعرفوننى .

وفى اليوم التالى كنت بالفصل أكثر أنسا حتى لم أنتبه إلى أن محمدا قد غادر الحجرة إلا بعد حين، وسألت عنه فوجدته بالمدرسة ما زال فعادت إلىّ الطمأنينة . أما فى اليوم الثالث فقد صدر الأمر من والدى أن يصحبنى محمد إلى باب المدرسة الذى كان يقع بشارع الدواوين ثم يتركنى وحدى .. وقد بكيت لهذا الإجراء بكاء حارا .. ولكنه كان أمرا صارما لا رجعة فيه . ذكرياتى فى هذه المدرسة تكاد تكون معدومة . ولا أذكر من رفاقى بها أحدا إلا أنها كان لها الفضل أن أذهب إلى مدرسة المنيرة لرياض الأطفال وأنا غير مضطرب الفؤاد ولا هالعا ، والذى أذكره عن المدرسة الجديدة أن ناظرة المدرسة كان اسمها السيدة روفية رمضان ؛ ولا زالت صورتها فى ذاكرتى حتى اليوم وأذكر من مدرساتها أيضا

السيدة توحيدة الدمرداش وكانت ترعانى بحدب ورضاء ، وأذكر أن أستاذة الرسم كان اسمها الأستاذة نعيمة التى جعلتنى أرسم رسما جميلا ، الأمر الذى لم يتكرر فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية رغم أن الذى كان يدرس لى الرسم فى المدرسة الابتدائية الأستاذ الفنان الكبير حسين بيكار ، كما كان يدرس لى فنان الكاريكاتير العظيم الذى اشتهر باسم مفرد هو رمزى . ومع ذلك كنت دائما لا أجيد الرسم مطلقا لدرجة أن والدتى وأنا أنتظر نتيجة الابتدائية كانت دائما تقول إنها خائفة أن أرسب فى مادة الرسم ، والعجيب أن حدسها أوشك أن يتحقق وحصلت فى مادة الرسم فى شهادة الابتدائية على أربع درجات من عشرين ، وهى الحد الأدنى للمرور ولا أقول النجاح .

قضيت فى مدرسة الروضة سنتين وأذكر أننى كنت متقدما لأننى سبقت زملائى فى تعلم اللغة العربية والحساب على يد الشاعر الأستاذ أحمد القرعيش ببلدتنا غزالة ، وقد كان مدرسا بالمدرسة الإلزامية بها ، وكان أول من علمنى بادئا بالخط الأفقى والخط الرأسى ، وأذكر أنه كان يشكل هذه الخطوط على الرمال ، فقد كنا نجلس على أريكة خارج المبنى الذى يعمل به كاتب الحسابات لزراعة أبى . وأشهد أن الأستاذ القرعيش هو أحسن أستاذ تلقيت عنه العلم .. فقد كان قديرا على تيسير المعلومات علىّ .. وكان حريصا على تشجيعى حتى أنه كان يحمل معه أقراص النعناع الصغيرة يتحفنى بواحد منها كلما أجدت الإجابة .. فإذا علمت أنه كان من كبار البخلاء أدركت التضحية التى كان يقوم بها ليصل بتلميذه إلى أحسن مستوى . وقد كان الأستاذ القرعيش شاعرا مجيدا .

وحين بلغت السنة الثانية الثانوية كنت أقرأ معه ومع قريننا الشاعر العصامى توفيق عوضى أباظة الذى علم نفسه ولم يختلف إلى مدرسة فى حياته لشدة فقره ، كنا نقرأ معا الشوقيات فى بيتنا بالقرية .. وكنا نبدأ القراءة بعد أن يصعد أبى إلى الدور الأعلى من المنزل فى حوالى الساعة التاسعة مساء ، ونظل نقرأ على الكلوب الذى ينير بالجاز حتى يطلع علينا الصباح ونقرأ على ضوء الشمس . وكنت انا الذى أقرأ ، والشاعران يستمعان ويستجيدان ويعلقان . وللأستاذ القرعيش فضلٌ علىّ لا أنساه أبدا .. فقد كنت أكثر من اللحن فى قراءتى ، وكان يصحح لى ، وقال لى : إذا كنت تريد أن تكون أديبا فلا بد أن تقيم لسانك وإلا فلن تصبح أديبا مطلقا . ويا ليته عاش حتى اليوم حتى يرى مقتل اللغة العربية على أيدى أدبائها . لا علينا !. خجلت من هذه الملاحظة فحين ابتدأ العام الدراسى فى السنة الثالثة الثانوية أعدت قراءة النحو وأخذت نفسى طوال السنة الثالثة الثانوية — وهى تقابل السنة الأولى الثانوية اليوم — أن أقرأ كل المواد العربية من تاريخ وجعرافيا وطبيعة وكيمياء بصوت مرتفع وأصحح لنفسى الإعراب فى كل قراءتى . حتى إذا جاءت الإجازة وبدأ ثلاثتنا قراءة الشوقيات فوجئ الشاعران بى وأنا لا أخطئ فى النحو مطلقا أو أكاد .. وهكذا استقام لسانى العربى كما استقامت كتابتى ، والفضل فى ذلك لمعلمى العظيم الأستاذ أحمد حسين القرعيش .

نعود إلى مدرسة المنيرة لرياض الأطفال التى مكثت بها كما أخبرتك سنتين . وقد وقعت لى مع هذه المدرسة نادرة طريفة ، فقد دعانى ناظر مدرسة لا أعرفها وأنا كاتب بالأهرام أن أعقد ندوة مع تلاميذ مدرسته .

ولبيت دعوته وذكر لى العنوان وذهبت ، وفوجئت أننى أعرف معالم المدرسة — وإن كانت معرفة باهتة — كما يقول الشاعر عن ذكرياته إنها تلوح كباقى الوشم بظاهر اليد . وما لبثت أن تبينت أن المدرسة التى أعقد بها ندوتى هى روضة الأطفال التى كنت أتعلم بها وأصبح اسمها مدرسة المنيرة الابتدائية ، وقد سعدت بهذه المصادفة كل السعادة .

دخلت بعد ذلك مدرسة المنيرة الابتدائية متقدما على سنى بسنة ، لأنه كان من المفروض أن أظل سنة ثالثة بالروضة إلا أن أبى رأى أن أقفز سنة . وهكذا لم يكن غريبا أن أرسب فى السنة الأولى الابتدائية . وأذكر أن أبى استاء كل الاستياء من رسوبى هذا ، وكان له صديق قريب إليه كل القرب وهو عبد الله أفندى العربى من بلدة الخيس القريبة من بلدتنا غزالة بمركز الزقازيق . وقد فاتنى أن أذكر لك أننى حين وُلدت بالقاهرة رفض أبى أن يقيدنى من مواليد القاهرة ، وقد وُلدت فى ٢٨ يونية عام ١٩٢٧ ، فانتظر أبى إلى أن ذهب إلى غزالة وقيدنى بها فى ١٥ يولية ١٩٢٧ ، حرصا منه أن أنتسب إلى بلدتنا غزالة التى كان يحبها كل الحب ، حتى أنه كان يوقع مقالاته السياسية بتوقيع الغزالى أباظة .

نعود إلى عبد الله أفندى العربى صديق أبى الذى اكتسب لقب أفندى من أنه كان مدرسا بالمدارس الابتدائية ، وكان يُدرِّس لشقيق أبى الأصغر عبد الله بك فكرى أباظة حين كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية ، وكان معجبا بطريقة تدريسه .

وكانت صلة الأستاذ العربى بوالدى وثيقة غاية الوثوق ، حتى أنه كان يسافر معه إلى الخارج على نفقته الخاصة ، فقد كان ميسور الحال . وقد

لبست أول ساعة فى حياتى هدية من عبد الله أفندى العربى .

حين رأى عبد الله أفندى الحزن يخيم علىّ لرسوبى فى السنة الأولى الابتدائية ، ورأى الاستياء الشديد من أبى لهذا الرسوب ، جاء إلى منزلنا قبيل المغرب فى يوم من هذه الأيام ودعانى أن أخرج معه ليرفه عنى . وذهبنا إلى مقهى بالجيزة ربما يكون هو المقهى الذى تعود بعض الأدباء أن يجلسوا به .. وقد كنت أشاركهم الجلوس به فى بعض الأحيان. ولو أننى لست واثقا أنه نفس المقهى ، فقد صحبنى إليه عبد الله أفندى فى أوائل الثلاثينيات وجلست مع الأدباء فى الستينيات .. فمن الصعب أن أؤكد إن كان المقهى هو نفسه الذى جلست به وأنا طفل . واشترى عبد الله أفندى لى وله جبنا وسلطانية زبادى ورغيفا لكل منا من الخبز الإفرنجى فكانت من أمتع الأكلات التى طعمتها فى حياتى . وإنى أروى هذه الواقعة على بساطتها لأن عبد الله أفندى العربى قال لى فى هذه الجلسة جملة لم أنسها حتى اليوم ، وكانت تمثل لى فى ذلك اليوم ضوءا ساطعا من الأمل فى ظلام اليأس الذى ران علىّ من سقوطى فى السنة الأولى الابتدائية . قال لى :

— يابنى لا تخف ! لا بد أنك ستفلح فى حياتك ، فإن الخير الذى قدمه أبوك للناس لا يمكن أن يذهب هباء .. سيكرمه الله فيك إن شاء الله .. لا تخف .

بعد ذلك بسنوات — ما دمنا نذكر عبد الله أفندى العربى — مرض رحمه الله نتيجة إبرة طبية كسرت فى فخذه وهو يتداوى بها . وحين كنا ننتظر نتيجة الشهادة الابتدائية وكنا قد انتقلنا إلى العباسية ، كان هو طريح الفراش . وفى أحد الأيام دق جرس التليفون فى الساعة السابعة

صباحا ليبشرنى عبد الله أفندى العربى أننى نجحت فى الابتدائية ، فقد صحا مع الفجر ليعرف نتيجة الشهادة التى كانت تنشر فى صحف الصباح فى تلك الأيام .

والعجيب أن عبد الله أفندى العربى مات فى اليوم نفسه ، وكأنه كان يستمهل الموت حتى يبشرنى بنجاحى .

كانت مدرسة المنيرة الابتدائية من أعظم مدارس مصر ، وكان ناظرا فيها الرجل العظيم فهمى بك الكيلانى والد المذيعة المتميزة سميرة الكيلانى ، وكان لها أخ يزاملنا فى المدرسة اسمه سمير . وكان بها أساتذة من أحسن أساتذة المدارس أذكر منهم الأستاذ الشيبانى الذى لا أنسى واقعة لى معه ، يوم دخل إلى الفصل وكتب على السبورة بضعة أبيات أذكر مطلعها :

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة

وكان اسم القصيدة « الله » جل جلاله ، وألقى بالطباشيرة والتفت إلى التلاميذ وسأل من يستطيع أن يقرأ هذه الأبيات ؟ فرفعت إصبعى وكنت لطول قامتى أجلس فى آخر الفصل . وأوليت ظهرى للسبورة وألقيت أبيات القصيدة جميعا . وحين استدرت صفق لى التلاميذ ووجدت الأستاذ مذهولا وقال لى : ماذا أقول لك يا بنى ؟ ماذا أقول ؟ ابن الوز عوام . وأعطانى الدرجة النهائية .

أذكر أن هذا كان فى السنة الثانية الابتدائية ، وقد كنت متفوقا فى هذه السنة تفوقا لم تشهده حياتى الدراسية قط لدرجة أننى فى أحد امتحانات الفترة كان ترتيبى الخامس ، وأعتقد أن هذا التفوق كان نتيجة لرسوبى فى

السنة الأولى .

ومن المدرسين الذين أذكرهم فى مدرسة المنيرة الأستاذ محمد البابلى والد الممثلة الرائعة سهير البابلى ، وكان هناك أيضا حبشى أفندى الذى أعتقد أن كل زملائى فى مدرسة المنيرة يذكرونه معى ، وكان دائما يسأل التلاميذ : مين باباتك بس ؟ فيجيب التلميذ : حبشى أفندى بس . وفى مرة قال لى : يلعن أبوك ! وكان متعودا أن يقولها للتلاميذ ولا يعلقون . أما أنا فاستهولت الأمر ونقلته إلى أبى ، وأعتقد أنه كان فى ذلك الحين وكيلا لمجلس النواب ، وكان من عظماء مصر بشخصيته وبتاريخه الشاهق فى ثورة ١٩ ، ولم يكن محتاجا إلى منصب ، فقد كان الجميع يحترمونه ويقدرونه لذاته لا لمنصبه .

وذهب إلى الناظر فهمى بك الكيلانى وقال : ربما يكون ثروت قد أخطأ ، فما ذنبى أنا ؟ واستدعى الكيلانى بك حبشى أفندى ، وسأله : هل لعنت أبا ثروت ؟ فقال : نعم . وقبل أن يغضب أبى استمهله حبشى أفندى ثم نظر إلىّ :

ــ مين باباتك بس ؟

قلت : حبشى أفندى بس .

فنظر إلى أبى :

ــ سعادتك لا شأن لك بالموضوع . أنا أشتم نفسى .

ولم يملك أبى إلا أن يضحك وينصرف .

وقبل أن أبتعد عن القصيدة التى ألقيتها فور كتابتها ، أذكر أن أبى كان يجتمع فى كل يوم بمكتبه بالمنزل بجماعة لا أعرف منهم أحدا ، وفهمت

أنهم كانوا يعدون لإقامة حفلة تأبين فى ذكرى شاعر النيل حافظ إبراهيم . وحدث أن فتحت الغرفة بظنة أن أبى وحده ، ولكنى وجدت معه هذه الجماعة .. فاستدرت لأخرج ، ولكن أبى نادانى وطلب إلىّ أن ألقى بينهم شيئا من محفوظاتى ، فألقيت الأبيات التى عنوانها : « الله سبحانه وتعالى » ، والتى مطلعها :

انظر لتلك الشجرة   ذات الغصون النضرة

فإذا بواحد من الجالسين يصيح :

— رفع الله رأسك كما رفعت رأسى .. أنا صاحب هذه الأبيات .

وعرفت أن الشاعر هو محمد الهراوى ، وقد كان صاحب شهرة هائلة فى هذا النوع من الشعر السهل الممتنع ، الذى كان يحفظه تلاميذ المدارس فى ذلك الحين .

وما دمت قد ذكرت هذه الاجتماعات فلا بد أن أذكر ما نتج عن تجمعها . فقد أقيمت حفلة تأبين ضخمة فى دار الأوبرا المصرية ، وقد شهدت هذا الحفل ، ولا أنسى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى الذى كان بين المتحدثين ، وقد كان معروفا عنه وعن أستاذنا العملاق عباس العقاد أنهما كانا من أشد المهاجمين لأمير الشعراء شوقى ولشاعر النيل حافظ إبراهيم .

وأذكر أن الأستاذ المازنى العظيم تقدم إلى مقدمة المسرح وقال ما معناه « أشهد الله والحق أننا هاجمنا شوقى وحافظ لنهدمهما ونقف على أنقاضهما ، فلم ننل إلا من الحق ومن أنفسنا » .

وكنت فى هذه السن الباكرة أصحب أبى فى كل تنقلاته ، وقد جعلنى

هذا التنقل أتعود مجالسة الكبار واحترامهم دون أن أرهبهم . وأذكر أن محمد باشا محمود الزعيم النبيل كان يأتى أحيانا لزيارة أبى قبل أن يكمل أبى لبس ملابسه ، فيأمرنى أبى أن أنزل إلى صاحب المقام الرفيع محمد باشا محمود وأجلس إليه حتى يكمل هو ملبسه .

وكان الباشا يهش لى ويأنس إلىّ حتى ينزل أبى ، وأترك الكبيرين وأنصرف إلى ملعبى .

وكان أبى يصحبنى وأنا فى هذه السن إلى مجلس النواب لأشهد الجلسات من شرفة الزوّار ، وأذكر أن رئيس المجلس فى ذلك الحين كان توفيق باشا رفعت ، وكان رجلا رقيق الجسم ضخم الشاربين . ووقعت عينه علىّ فى شرفة الزوار ، ويبدو أنه تعجب من وجود طفل فى مثل سنى فى هذا المكان ، فشهدته يشير إلى الساعى الخاص بالرئاسة ويهمس فى أذنه ، فإذا بهذا الساعى يصعد إلىّ ويسألنى : من أنت ؟ وقلت له . وشهدته يعود إلى الباشا ويهمس فى أذنه .. ويهز الباشا رأسه موافقا .

وحين دخلت كلية الحقوق وجدت الغالبية الكاثرة من الطلبة لم يشهدوا جلسة واحدة لمجلس النواب أو الشيوخ ، بل إن أغلبهم لم يذهب إلى البرلمان فى حيَاته ولا مرة واحدة . كان أبى يحرص على أن أكون معه أغلب الوقت دون إخوتى . أما إخوتى فهم شامل الذى نال الدكتوراه من تولوز بفرنسا ، ثم ارتقى فى الوظائف بالشركات حتى وصل إلى رئيس مجلس إدارة شركة الأقطان بالإسكندرية ، كما كان عضوا بمجلس الشعب فى انتخابات ١٩٧٦ . وكم أسعدنى أننى كنت أمر معه فى الدائرة فكان الناخبون يقولون لى فى وجهى : نحن لا ننتخب أخاك ولا ننتخبك وإنما

ننتخب أباك . وكان قد مر على وفاة أبى قرابة ربع قرن فقد توفى فى يناير ٥٣ ، ولا شك أن أغلب الذين كانوا يقولون لى هذا من أبناء من عرفوه أو من أحفادهم . وكان ربع القرن هذا الذى يفصل بين وفاة أبى وبين الانتخابات فترة كلها هجوم على الباشاوات والسياسيين الذين يمثل أبى فيهم صورة جلية الملامح ، ولهذا لم يكن غريبا أن أقول يوما للدكتور ثروت عكاشة وهو وزير للثقافة والإعلام : نحن إقطاعيون ولو أن الثورة لم تأخذ منا مليما واحدا ولا سهما من أرض .. فنحن لسنا أغنياء ، ولكننا إقطاعيون بحب الناس لنا وبحبنا للناس ، وهو إقطاع لم تستطع الثورة ولن تستطيع أن تمسه أو تنقص منه .

وشامل يصغرنى بسنتين وبضعة أشهر ، فهو من مواليد أبريل ١٩٣٠ وأنا لا أذكر أحداث اليوم الذى ولد فيه .. وإنما نشأت وأنا أجده . وشامل شاعر متمكن وإن كان قليل النشر ، وقد نَظَم الشعر فى سن باكرة مع أنه نال بكالوريوس التجارة ويعتبر اليوم من أكبر خبراء الاقتصاد فى شئون القطن ، وقد نال الدكتوراه فى الإصلاح الزراعى وهو أخى الوحيد ، وله ابنة هدى الحاصلة على ماجستير فى الآداب ومدرسة بكلية الآداب وابن إبراهيم الحاصل على ليسانس الآداب ، ولى بعد ذلك أختان أكبرهما زينات وأذكر يوم ميلادها ذكرا هشا فقد ولدت بغزالة وأذكر أن البيت كان هائجا ، وقيل لى إن ذلك الهياج كان بسبب حالة الولادة . وقد تزوجت زينات ابن عمنا طوسون أباظة الذى تربى فى المدارس الإنجليزية وهذا ما يجعلنا نمازحه ونعتبره خواجة . وقد أنجب الزوجان ابنا هو أبو بكر ونال بكالوريوس التجارة ويعمل بالبنوك ، وابنة أسمياها دلبار على

اسم جدتى لوالدى . وقد نالت بكالوريوس الطب ولم تعمل بها .. وإنما تزوجت وتقيم مع زوجها فى أمريكا . وقد نشأت زينات متعلقة بالأطفال منذ صغرها ، وإن فيها حنانا لو وزع على الكرة الأرضية لملأها رحمة ومحبة .

وأختى الصغرى هى كوثر ، وأذكر مولدها فى حلوان .. وكنت فى التاسعة من عمرى . وأذكر فى يوم مولدها أن أبى كان جالسا فى حجرته وحلا له أن يعلمنى بعض كلمات فى الإنجليزية فكتب عشر كلمات ، وقال : احفظ هذه الكلمات . فأخذت الورقة ونظرت فيها لحظة وأعطيتها له ، فدهش وقال فى غيظ :

— اسمع أنت لم تكد ترى الورقة .. فإن كنت حفظت فى هذه اللحظة الوجيزة كل الكلمات فسأعطيك عشرة قروش ، وإن أخطأت فى كلمة واحدة سأضربك .

وأبى لم يكن ضربنى حتى ذلك اليوم إلا مرة واحدة يوم أخبرته المربية العجوز أننى أذهب إلى المدرسة دون أن أغسل وجهى ، ولهذا وقع تهديده من نفسى موقعا مخيفا ، ولكن الله ستر وأخذت القروش العشرة .

وكوثر أختى كانت تعتبرنى المربى الأول لها ، فقد كنت أخالطها أكثر مما تخالط أبى ، ولهذا كانت فى طفولتها تخشانى . ولكن ما لبثت هذه الخشية أن زالت مع الزمن وحل مكانها الحب الذى يكون بين أخ وأخته لا يرنق صفاءه شىء . وقد تزوجت كوثر من الطبيب الشهير أحمد عبد العزيز إسماعيل نجل الطبيب العملاق الأشهر عبد العزيز باشا إسماعيل وقد أنجبا بنتين هما : سناء وهى حاصلة على الدكتوراة من كلية الاقتصاد

والعلوم السياسية وتُدَرِّس بها ، وهى متزوجة من المهندس شريف نجل المستشار العظيم الخريبى بك ، وأختها وفاء حاصلة على الماجستير من نفس الكلية وزوجها د. محمد الخولى طبيب أطفال وابن الطبيب الشهير الدكتور الخولى ، كما أنجبت أختى وزوجها ابنهما الوحيد عبد العزيز وهو مهندس .

تلك هى أسرتى وقد شهد أبى زواج زينات وزواج كوثر ، وقد صحبها زوجها إلى أمريكا بعد الزواج مباشرة ليكمل دراسته بها . ولم يشهد أبى زواج شامل فقد تم بعد وفاته ، ولو كان شهده لفرح به وباركه كل المباركة .. فقد اختار شامل شريكة حياته ابنة محمود فهمى النقراشى باشا الذى كان صديقا لأبى فى مطالع شبابهما ، ثم افترق الصديقان فترة حين نشأ حزب الأحرار الدستوريين عام ٢٢ وكان أبى من منشئيه ، وأصبح أبى حرا دستوريا . وظل النقراشى باشا فى الوفد حتى خرج عليه هو وأحمد ماهر باشا عام ١٩٣٨ ليكونا حزب الهيئة السعدية ، وقد ألف النقراشى باشا الوزارة .. وكان أبى وزيرا فيها معه ونال الباشوية فيها . وعادت الصداقة تربط بينهما من جديد كأنهما ما تفرقا .. وظلا صديقين حميمين إلى أن استشهد النقراشى باشا على يد أحد مجرمى الإخوان المسلمين .

٢

ترانى أسوق إليك الحديث فى عفوية ودون إعداد .. فأنا لم أضع خطة للحديث إليك ، وإنما أترك حياتى تتواكب فى ترسل تمسك فيها الواقعة بالواقعة والمناسبة بالمناسبة ، وما هكذا عهدت الكتب التى كتبت فى السيرة الذاتية ، ولكن أى بأس علىّ وأى بأس عليك أن يكون حديثنا حديث صديق لصديق أو أخ إلى أخيه فى غير تنسيق أو تبويب أو تجمل . فخذ بيدى ولنمض معا على هذا الطريق .. وأنا وإياك على فيض الكريم .

كان من بين الجماعة التى تنظم حفلة تأبين حافظ إبراهيم الأستاذ العظيم كامل الكيلانى وكان فى هذه الأيام قد بدأ كتابة مؤلفاته الرائعة فى أدب الأطفال أو قصص الأطفال إن شئت .. وهى مكتبة ليس لها مثيل فى الأدب العربى أجمع .. فقد استطاع الأستاذ الكيلانى أن يبسّط الأدب العالمى ويجعل الطفل فى سن باكرة يتعرف على أمهات هذا الأدب ، وقد كانت أعظم هدية أتلقاها من أبى فى هذه الفترة هى كتب كامل الكيلانى . وأذكر وأنا فى الثامنة من عمرى أن الأستاذ الكيلانى أهدى عشرة كتب من مؤلفاته إلى أبى . وأعطانى أبى الكتب ، ودخلت إلى غرفتى وانبطحت أرضا وبدأت أقرأ الكتب ، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا فى عالم سحرى عجيب .. وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتى ، وأجمل أوقاتها هى تلك التى بدأت فيها أتعرف على

الكتاب وأصاحبه صحبة دامت حتى يومنا هذا .

وقد استطعت بفضل مكتبة الكيلانى أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون أن أشعر بأى جهد . فحين بدأت قراءته سيطرت علىّ متعة القراءة ، وانتقلت بعد ذلك إلى تيمور .. ثم فى غير ترتيب زمنى رحت أقرأ للعمالقة مبهورا بهذه العوالم التى تفتحت آفاقها أمام عقلى ووجدانى وكيانى كله ، وأنا أقرأ لطه حسين وهيكل والعقاد والزيات وأحمد أمين والمازنى .. الذى كثيرا ما جعلنى أقهقه وأنا أقرأه وحدى فى غرفة مغلقة .. وتعلو قهقهتى ويسمعها الذين بخارج الغرفة .. والله وحده يعلم ماذا كان يظن بى الجالسون خارج الغرفة .

وأذكر فى هذه الأيام أننى كنت فى مدرسة المنيرة الابتدائية .. وقد تضحك كثيرا إذا علمت أننى كنت فى فريق الكشافة ورقيت فى هذا الفريق حتى أصبحت رئيسا للفريق ، وقبل أن أحصل على الابتدائية اشترى أبى بيتا جديدا فى العباسية وظللت بضعة أسابيع أستقل ترام رقم ٢٢ لأذهب من العباسية إلى المنيرة ، ولكن هذا كان يكلفنى أن أصحو مبكرا عن موعد المدرسة بساعة أو أكثر . وقد عشت عمرى أكره شىء إلى نفسى أن أبكر فى الاستيقاظ ، وما هذا إلا لأننى كنت أسهر إلى ساعات متأخرة من الليل أقرأ .. وكانت القراءة تستهوينى وتبتلعنى حتى ما أفيق إلى الساعة التى أنا فيها . وقد ظللت عمرى كله لا أنام إلا بعد أن أقرأ .. وقد أقرأ أربع ساعات متصلة أو أقل أو أكثر .. ولكن لا بد أن أقرأ على أية حال . حتى فى رأس البر .. ولم تكن الكهرباء متاحة لى ، فكنت أضع على صدرى بطارية جيب وأقرأ عليها حتى يخفت نورها وتصبح

الكلمات غير مقروءة فأنام مرغما .

وهكذا انتقلت إلى مدرسة العباسية الابتدائية ، فى منتصف العام الذى كان مفروضا أن أتقدم فيه لنيل الشهادة الابتدائية .

والحقيقة أنه ليست لى ذكريات كثيرة عن مدرسة العباسية إلا أننى كان لنا مدرس حبيب إلى نفوسنا نحن التلاميذ اسمه التاجى أفندى ، ومنذ أسابيع قليلة التقيت بطبيب يحمل نفس الاسم فإذا به ابنه الذى يبلغنى أن أباه — أطال الله عمره — يتمتع بصحة جيدة والحمد لله . وكان الأستاذ التاجى هو المسئول عن فريق الكشافة وما إن علم أننى كنت رئيس الكشافة فى مدرسة المنيرة حتى جعل منى رئيس الكشافة فى مدرسة العباسية أيضا .

ومن بين تلاميذ فصلى زميل لن أذكر اسمه حفاظا منى على حق الزمالة .. جاء فى الحصة رسول إلى هذا الزميل فأبلغه بموت أبيه .. فرحنا جميعا نعزيه ، وخرج التلميذ وانقضى العام وتفرق فصلى .

ومرت أعوام ودخلت إلى كلية الحقوق وأصبح أبى وزيرا للأوقاف من بين الوزارات التى تولاها فى هذه الفترة .. وفوجئت بهذا الزميل يرسل إلىّ خطاب توصية لأعين حامله إماما بأحد المساجد ، واهتممت بالشيخ وأخذته معى فى السيارة لأذهب به إلى وزارة الأوقاف .. وبعد المنزل ببضعة أمتار توقفت السيارة فى حاجة إلى بنزين فنزلت وناديت خادما من بيتنا ليأتينى من والدتى بثمن البنزين ، وكان كل ما أطلبه لا يزيد على عشرة قروش فقد كانت سيارتى صغيرة وكان البنزين يباع فى هذه الأيام بوحدة الجالون وكان الجالون أربعة لترات وقد كانت كافية أن أسير

بالسيارة يومين أو أكثر. وفى انتظار القروش العشرة نزلت من السيارة أنا والشيخ .. وإذا بالشيخ يخرج من جيبه ظرفا فيه بضعة نقود جديدة قدرت بالنظرة السريعة أنها خمسة جنيهات وقدم الشيخ النقود إلىّ .. وفى لحظة وجدت الدماء تصعد إلى رأسى ، وأتناول النقود وأمزقها وألقى بها إلى الأرض . وما زلت ألوم نفسى على هذا الذى فعلته حتى اليوم ، ولا يخفف عنى اللوم إلا أننى حين مزقت النقود لم أجعلها غير صالحة للاستعمال بعد ذلك .

وطردت الرجل الذى راح يلملم النقود وانصرف . ومرت سنوات وتزوجت وأقمت بشقة بالزمالك . وكنت مع زوجتى فى سينما فى الحفلة الأخيرة وعدت إلى منزلى الساعة الثانية عشرة مساء تقريبا .. فوجدت هذا التلميذ الذى أُبلغ بموت أبيه فى فصلنا بالعباسية ، ودهشت لوجوده .. فإذا هو يبلغنى أن أباه مات اليوم وأنه لا يملك ما يدفنه به ، وطلب منى مبلغا من المال لم يكن من اليسير وجوده فى هذه الأيام ، ورحنا أنا وزوجتى نجمع ما معنا حتى أكملنا المبلغ وأعطيته له وأنا أعلم كذبه . وأغلب الأمر أنه نسى أننى شهدت علمه بموت أبيه قبل اليوم الذى قصد إلىّ فيه بأكثر من أحد عشر عاما ، أو لعله توهم أننى نسيت ذلك اليوم .

ولم أقل له إننى أذكر يوم وفاة أبيه ، ولكننى لم أره بعد ذلك اليوم ، ولعله رأى فى عينى ما حاولت أن أخفيه عنه .

انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة فاروق الثانوية وربما كانت أفخم مدرسة فى مصر فى ذلك الحين .. فقد كانت حديثة الإنشاء والذى

أنشأها رجل التعليم الشهير الأستاذ إسماعيل القبانى على أساس أن تكون مدرسة نموذجية ، وتولى هو نظارتها . ولكننى حين ذهبت إليها كان قد تركها وكان الناظر فيها الأستاذ العظيم عبد الواحد بدر خلاف ثم تلاه الرجل العظيم الآخر نجيب هاشم الذى أصبح بعد ذلك وزيرا للتعليم .. ثم سفيرا لمصر فى الفاتيكان . ولعله من الطريف أن أروى أنه كان سفيرا فى أول مرة أزور أنا فيها روما مقر سفارته .. وقبل سفرى عثرت على خطاب منه إلى أبى يشكو فيه من كثرة تغيبى عن المدرسة ، وعلى ظهر الخطاب رد أبى الذى كتبه لينقله سكرتيره ويرسله إلى حضرة الناظر . وكان خطاب أبى يحث نجيب بك أن ينزل بى ما يشاء من عقاب ، وأن أبى من جهته سيحرص على ألا أتغيب عن المدرسة . وقد استقبلنى نجيب بك فى روما أحسن استقبال وقدمت له هذا الخطاب الذى لا يشرفنى .. وضحكنا كثيرا بما يحويه ، وقد تفضلت السيدة الكريمة حرمه باصطحابى أنا وزوجتى إلى كثير من معالم روما ونوافيرها ، وكنت فى ذلك الحين قد أصبحت أديبا معروفا ، وكنت حصلت قبل زيارتى لروما بعشر سنوات على جائزة الدولة التشجيعية ، وهكذا كان نجيب بك سعيدا بى سعادة أب بابنه .

وقد كان نجيب بك محقا فى شكواه من تغيبى ، فقد كنت قارئا متهوسا ولم أكن أترك المدرسة لأذهب إلى أى مكان وإنما كنت أنزل من الطابق الأعلى فى بيتنا وأتسرب إلى حجرة فى الطابق الأدنى وأقفل الباب ، وأروح أقرأ فى كتب الأدب .

وكان كبير الخدم عندنا اسمه عم أحمد ، وكنا نناديه بلقب عم أحمد

توقيرا له . وفوجئت يوما وأنا فى خلوة قراءتى بباب الحجرة يكاد ينخلع من مكانه من شدة الخبط عليه ، وفزعت إلى الباب وفتحته .. فإذا بوالدتى أمامى تتميز من الغيظ ، ولولا أننى كنت قد تجاوزت الطفولة إلى مطالع الشباب لانهالت علىّ ضربا ، وأمرتنى أن أذهب إلى المدرسة فورا . فقد كانت أمى حريصة حرصا مبالغا فيه أن أنال الشهادة العالية لدرجة أننى كنت إذا ظهرت نتيجة العام وأنا لى ملحق فى مادتين أو أكثر ، تمرض والدتى بضعة أيام وتمتنع عن الطعام . وكان حزن والدتى يتمثل فى النوم ؛ كانت إذا حزنت نامت وهذا من لطف الله بها ، وكانت رحمها الله تستحق هذا اللطف من الله .. فإنى لم أعرف أما رءوما فى مثل حنانها ، وكانت تعين البائسين وذوى الحاجة وتسعى لهم لدى أبى حتى يقضى حوائجهم . ولا أذكر أنها تأخرت عن قاصد لها مطلقا .

لم أنته بعد من قصة أمى وضبطها لى متخلفا عن المدرسة .. عدت من المدرسة وذهبت إلى والدتى وكانت رحمها الله قريبة الرضى ، وظللت أتلطف معها حتى عرفت أن الذى أبلغها بعدم ذهابى إلى المدرسة هو عم أحمد . ومن العجيب أننى فى هذه السن قدرت له ما فعل وشكرته فى نفسى ، فما كان يبغى إلا مصلحتى من وجهة نظره ، وبحثت عنه فقيل لى إنه ذهب إلى البلد هو وأسرته الكبيرة وكلهم من بلدتنا غزالة . ولكنه كان يقيم مع زوجته وأولاده ببيتنا بالعباسية بحجرة بالبدروم ، وكانت حجرته دائما غاية فى النظام والنظافة .. فقد كان هو دائما حسن الهندام نظيفا وكذلك زوجته أم زكية التى أرضعتنى على ابنها عبد العظيم . وكثيرا ما كنت أزورها فى حجرتها بالبدروم ، بل كثيرا ما كنت أتناول طعامى فى

هذه الحجرة .

طالت غيبة عم أحمد بالبلدة وهمس لى سائقنا الذى كان من البلد أيضا أن عم أحمد لن يعود .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه قدر أنك ستكون غاضبا عليه .

ودهشت من إخلاص هذا الرجل .. لقد وازن بين بقائه فى عمله الذى هو مورد رزقه الوحيد وبين أن يغمض عينيه عن تخلفى عن المدرسة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى عدم فلاحى كما يعتقد ، فأبلغ والدتى بأمرى وترك عمله وتوكل على الله . وقد كان لصيقا بأبى فقد كان خادمه الخاص ، وكان يسافر معه إلى أوروبا ، ويعرف كيف يريحه ويلبى كل طلباته دون أن يطلبها .. فقد قضى حياته كلها مع أبى هو وأبوه كذلك وأقاربه جميعا يعملون فى الأرض عند أبى .

سارعت فطلبت عم أحمد فى غزالة بالتليفون ، وطبعا لم يكن ببيتنا هناك ، ولكنى طلبت من الذى أجابنى بالبيت أن يناديه لينتظر منى مكالمة وكلمته .

ـ ماذا يا عم أحمد .. لماذا لم تأت ؟

فقال فى صوت به آثار ضحك :

ـ أتريدنى أنت أن أجىء ؟

ـ طبعا .

ـ بكرة سآتى .

وأرجو الله أن أكون قد أكرمت هذا الرجل على قدر ما شهدت من

تضحيته وحبه وإخلاصه لنا .

فى مدرسة فاروق بدأت رحلتى مع الملاحق ، فكنت دائما أنتقل من السنة إلى الأخرى بملحق حتى حصلت على شهادة الثقافة ، وهى تعطى لمن يتجاوز الامتحان فى السنة الرابعة الثانوية ، وهى السنة السابقة على شهادة التوجيهية التى أصبح اسمها الثانوية العامة .

وقد كان يوم حصولى على شهادة الثقافة يوما مشهودا فى حياتى .. كنت فى ذلك اليوم أترقب ظهور مقالتى الثانية فى مجلة الثقافة التى كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر وهى أعظم لجنة أدبية عرفها تاريخ مصر .. فقد كانت تضم عمالقة الأدب جميعا بلا استثناء .

ومع أننى كثيرا ما رويت كيف نشرت أول مقالة لى فى حياتى إلا أننى أعتقد أننى لن أستطيع أن أقدم إليك هذا الكتاب دون أن أذكر بداية حياتى مع الكتابة . وأنا قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتب ، وفى العام القادم أكون قد قطعت من عمرى خمسين عاما فى الكتابة .

كنت طالبا فى الثقافة ـــ السنة الرابعة الثانوية فى مدرسة فاروق الأول الثانوية ـــ وكان يدرس لنا اللغة العربية أستاذ طيب اسمه الأستاذ ضاحى ، كتبت له موضوع إنشاء استعملت فيه كلمة تساءل فيما أذكر ، فإذا به يضع تحتها خطا ويقول لى ـــ تساءل على وزن تفاعل ، وتفاعل لا تكون إلا فى تبادل الشىء بين شخصين فاستعمالك لها غير صحيح .

وعجبت من هذا الذى يقول . فما إن ذهبت إلى المنزل حتى هرعت إلى القاموس وما لبثت أن تبينت أن الأستاذ أخطأ خطأ فادحا ، وكان خطأ الأساتذة فى ذلك الحين كبيرة من الكبائر . كتبت كلمة عنوانها

تصحيح أوراق . وكان الأستاذ الشاعر العظيم العوضى الوكيل قد عرف أبى وعرفنى بصديق امتدت صداقتى الوطيدة به حتى اختاره الله إلى جواره هو الأستاذ عثمان نويّة . وكان والد عثمان نوية الذى كان يعمل فى ذلك الحين مدرسا بمدرسة خليل أغا زميلا للشاعر العوضى الوكيل شيخا معمما ، وكان والده زميلا لأحمد بك أمين الذى كان فى ذلك الوقت عميدا لكلية الآداب .. وأديبا من أدباء الصدارة فى العالم العربى ، وكان قبل ذلك زميلا لوالد عثمان نوية فى مدرسة القضاء الشرعى . وكان أحمد بك أمين يعتبر نفسه والدا روحيا لابن زميله عثمان نوية .

قرأ عثمان نوية الكلمة الصغيرة التى كتبتها عن خطأ الأستاذ وقال سأعرضها على أحمد بك أمين .

وانتظرت عودة عثمان من زيارة أحمد بك أمين بصبر نافد . فقد كنت فى السادسة عشرة من عمرى وكان نشرى بمجلة الثقافة التى كانت تحتل هى وأختها الرسالة مكان الصدارة فى الحياة الأدبية أمرا يفوق كل أحلامى .

وعاد عثمان نويّة ، وقال : إن أحمد بك رضى عن الكلمة وسينشرها . ولم أصدق ورحت أسأل عثمان عن تفاصيل ما دار بينه وبين العميد الجليل ، فقال : إنه قرأها وسأل :

— هل هى لمدرس زميلك ؟

فقال عثمان فى سرعة بديهة :

— بل هى لصديق محام .

ولم يجرؤ أن يصارحه أنها لطالب فى الثقافة . ونشرت الكلمة ، وكان

زملائى فى مدرسة فاروق يقرأون الثقافة والرسالة ويهتمون بالأدب ، حتى إننا أنشأنا لأنفسنا مكتبة خاصة فى الفصل يضع فيها التلاميذ كل الكتب التى يشترونها فى دولاب أحضرته أنا من منزلنا ، وتظل الكتب فى الفصل طوال العام الدراسى ، ويسترد كل تلميذ كتابه بعد أن يكون الفصل كله قد قرأه .

ولم أكن أخبرت أحدا من زملائى شيئا عن كلمتى التى أرسلتها للثقافة ، فكانت المفاجأة مذهلة وعرف الزملاء أننى صاحب الكلمة على الرغم من أننى وقعتها بتوقيع « تلميذ قديم » وتبادل تلاميذ المدرسة كلها وأساتذتها أيضا قراءة الكلمة . واستدعانى نجيب بك هاشم رحمة الله عليه وطلب إلىّ فى لطف وكياسة ألا أهين أساتذتى . وأذكر أننى قلت له ما دمت أملك قلما فلا يستطيع أحد أن يظلمنى ، ولك أن تقدر كبر هذه الكلمة من صبى يافع ما زال تلميذا بالثانوى ، ولم تنشر له إلا كلمة صغيرة بدون توقيع . وحتى يومنا هذا كلما ذكرت هذه الكلمة تأكد عندى أن الغرور لا يكون إلا مع المبتدئين ، وأنه يتلاشى ويتخافت ويذوب كلما كبر المرء وبلغ مبالغ النضج .

كان من الطبيعى بعد أن نشرت الكلمة أن يصارح الأستاذ عثمان نويّة أحمد بك بأن الكاتب تلميذ بالسنة الرابعة الثانوية ، وطلب أحمد بك أن يلقانى . وذهبت إليه وكانت بداية تلمذة منى للأديب العملاق ، وقد طلب إلىّ أن أقرأ بعض كتب التراث وسمى لى أسماءها ، وسارعت إليها وقرأتها جميعا ووجدت فى قراءتها متعة عظيمة أذكر منها على سبيل المثال كتاب العمدة لابن رشيق وكتاب الكامل للمبرد وغيرهما وغيرهما وقد

جعلنى هذا أقرأ كتاب الأغانى ، ولم أستطع أن أكمله إلا حين أهدى إلىّ عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين كتاب الأغانى مختصرا ومرفوعا منه العنعنة ، الذى حققه هو والأستاذ إبراهيم الإبيارى ، وقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرتين أو ثلاث .

وأعطيت أحمد بك أمين مقالة أخرى عنوانها « شعراء مغمورون » وكتبت فيها عن الأستاذ أحمد القرعيش والأستاذ توفيق عوضى أباظة .

ومالى لا أذكر لك ما اخترته لكل من الشاعرين فى هذه المقالة ؟

أما الأستاذ أحمد القرعيش فقد أخذت له هذه الأبيات :

قالت : أحبُّك صادق ؟ قلت الدلائل قاطعاتُ
قالت : وعهدك ؟ قلت : باق ما رعت عهدى الحياةُ
قالت : وحبى ؟ قلت : فصل مثلته الغانياتُ
قالت : وعهدى ؟ قلت : ذاك هو الأمانى الكاذباتُ
ضحكت وقالت : هكذا من قبلك العشاق ماتوا

أما أبيات توفيق العوضى فقد كانت خطابا منه إلى المستشار الأديب المحقق جمال الدين بك أباظة عم الشاعر العملاق عزيز باشا أباظة ، وفى الأبيات يشكو توفيق إلى جمال بك ابن أخيه أنه أرسل إليه خطاب تحية فلم يرد عليه . تقول الأبيات :

جمال الدين والدنيا سلاما يضوع شذى كأنفاس الخزامى
وبعد فهل أتاك حديث قوم نكلمهم فيأبون الكلاما
بعثت إلى عزيز القول شعرا أحييه فما رد السلاما
فإن يك أكبرَ الشعراء طرا وأعظمهم وأسماهم مقاما

فقدنادى إلٰه الناس موسى ... وناجى العبدَ من خلق الأناما
وبنت النمل كلَّمها نبىٌّ ... وبادلها المحبة والوئاما
فلست أقلَّ من نمل ضعيف ... وليس أجل من ملكٍ تسامى

وكان إعطائى المقالة لأحمد بك أمين مواكبا فى الزمن مع فراغى من الامتحانات واستعداد منزلنا للذهاب إلى رأس البر للمصيف . فقد كانت الحرب العالمية على أشدها ، وانتقل المصطافون من الإسكندرية إلى رأس البر .

وذهبنا إلى رأس البر ومكثت أترقب ظهور المقال ، وقد كنت لا أطيق أن أبحث عنها ـــ مجلة الثقافة ـــ مع بائع الجرائد ، بل كنت أستبق الزمن وأذهب إلى شارع النيل فى رأس البر أنتظر المركب الذى كان يأتى بالصحف وأشترى المجلة . ولكنى لا أجد بها المقالة فتضيق بى الحياة . وأحسب اليوم أن انتظارى لظهور المقال كان يؤزنى أزا لم أشعر به فى انتظار نتيجة شهادة الثقافة . وكنت قد أخبرت أبى أننى أعطيت مقالة لأحمد بك أمين وكان يشعر بحزنى كلما ظهر عدد من مجلة الثقافة وليس به مقالتى .

حتى كان ذلك اليوم المشهود الذى بدأت به هذا الحديث إليك . فى ذلك اليوم ذهبت أستحم فى البحر ، وطبعا نزلت إلى البحر بدون نظارة النظر التى كنت قد بدأت لبسها قبل هذه الفترة بسنتين تقريبا ، وأنا بها أرى حتى السطر الأخير من اللوحة بدرجة ٦/٦ ، وبغيرها يكون نظرى ضعيفا لا أستطيع أن أحدد الأشياء البعيدة .

وفى البحر استطاع بصرى أن يرى عن بعد رجلا مسنا يحتزم بقرعتين

ليعيناه على البقاء طافيا على سطح الماء ، ولا أدرى لماذا اقتربت من هذا المسن ربما لأننى منذ طفولتى أحس حنينا لكبار السن . وربما لأننى عجبت من استعمال القرع المجفف للطفو وكانت العجلات هى المستعملة فى هذا الغرض .

وفوجئت حين اقتربت أن هذا الرجل لم يكن إلا أستاذنا العظيم أحمد بك أمين الذى لقينى أجمل لقاء ، وسألته عن مصير مقالتى فقال لى شيئا لم أكن أتوقعه قط ، قال إنهم لم يشاءوا أن ينشروا شيئا عن عزيز بك أباظة — ولم يكن قد نال الباشوية بعد — وأنهم أرسلوا إليه خطابا يستأذنونه فى نشر أبيات توفيق العوضى عنه . وقد أعجبت كل الإعجاب بمنطق المجلة وبخلق المشرفين عليها ، وقلت لأحمد بك أمين إننى أستطيع أن أرسل أبياتا أخرى غير هذا . فقال « يكون أحسن » . وملأت نفسى الفرحة ، وخرج أحمد بك من البحر وتبعته أنا ذاهبا إلى عشتنا وأخبرت أبى بسبب تأخير نشر المقالة ، وبعد الظهر من اليوم نفسه ذهبت إلى مسرح برأس البر وحجزت لنفسى تذكرة لمشاهدة عميد الفن الكوميدى فى مصر والشرق نجيب الريحانى . وعند عودتى وكانت الشمس لم تغرب بعد ، وإنما تميل إلى الغروب ، وجدت عامل تلغراف يدور بين العشش تائها . سألته عمن يريد ، فقال : أريد عشة دسوقى بك أباظة . قلت له : أنا ابنه ، فسلمنى برقية من قريبنا المرحوم الأستاذ عبد الله عوضى أباظة الذى كان مدرسا بالثانوى ، وكانت البرقية تحمل تهنئة بنجاحى فى شهادة الثقافة . ومنذ ذلك اليوم وأنا أستبشر خيرا كلما رأيت الريحانى فى السينما أو فى التليفزيون . ذهبت فى اليوم نفسه إلى عشة أحمد بك أمين ووجدت عنده

العلامة القانونى العظيم السنهورى باشا . وسلمت أحمد بك مقالة أخرى فيها أبيات لتوفيق غير هذه التى أوقفت النشر .

وهكذا كان هذا اليوم يوما مشهودا فى حياتى كما ترى . حدث بعد ذلك أن رافقت أبى إلى بلدتنا غزالة ، وكانت المقالة قد نشرت ، فوجدت الأستاذ القرعيش قد نظم أبيات تحية لى سأذكر البيت الأول منها فقط ، لأنها تؤرخ الفترة جميعها. يقول فى مطلع الأبيات :

نال الثقافـــة وازدهـــى بيراعـــه صدر الثقافـــة

أما الأبيات الأخرى فأخجل أن أذكرها .

* * *

فى غمرة حديثى عن تلك المرحلة لم أذكر أن أبى تولى الوزارة لأول مرة فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤١ وكنت فى السنة الثالثة الثانوية ، وكان توليه الوزارة قبل تاريخ مولدى بيومين . وقبل أن يتولى أبى الوزارة كان حزب الأحرار قد رشحه لرياسة مجلس النواب بينما رشحت الهيئة السعدية أحمد ماهر باشا ، وكان رئيس الوزارة المرحوم حسن صبرى باشا . وقصة هذا الرجل مع أبى عجيبة .. فقد حدث فى سنة ١٩٣٨ أن أبى كان بصفته سكرتير عام حزب الأحرار يقوم بإعداد أسماء مرشحى الحزب فى الانتخابات وكان رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، ولم يشترك أبى فى الوزارة ، وكان هذا موضع دهشة كبرى من الناس ألا يشترك سكرتير عام الحزب فى الوزارة ، ولكن محمد باشا اعتذر له اعتذارا شديدا ، وجد أبى نفسه مضطرا أن يقبله لما لمحمد باشا محمود من مكانة خاصة فى نفسه . وبينما أبى مشغول بإعداد الانتخابات كلّمه حسن باشا صبرى فى التليفون

وكان فى ذلك الحين وزيرا فى وزارة محمد باشا ، وكان مقربا من الإنجليز ، وطلب إلى أبى أن يضع أحد الأسماء مرشحا فى دائرة معينة ، ولكن أبى اعتذر بأن هذه الدائرة بها عضو قديم فى الحزب ، ولا يستطيع أن يتخطاه ، فإذا بحسن صبرى يقول لأبى :

— أتناقشنى ؟

فوضع أبى سماعة التليفون فى وجهه .

وبعد ذلك ببضعة أشهر حدثت فى الوزارة أزمة استدعت إخراج وزير الزراعة من وزارته . وكان مجلس الوزراء مجتمعا حين قال محمد باشا للوزراء إنه مضطر أن يفض الاجتماع لأنه على موعد مع الملك ليوقع منه مرسوم تعيين وزير الزراعة . وسأل الوزراء :

— من الوزير ؟

وقال محمد باشا :

— إنه برلنتة (أى شخص من الماس) .

— من ؟

— دسوقى أباظة .

فإذا حسن صبرى باشا يقول :

— إذا دخل دسوقى أباظة الوزارة من هذا الباب ، فسأخرج من الباب الآخر ؟

وهكذا لم يعين أبى وزيرا فى وزارة محمد باشا محمود ، وظلت الوزارة بغير وزير زراعة حتى استقالت .

وجاءت بعدها وزارة مستقلة يرأسها على باشا ماهر لم يشترك فيها

أحزاب .

ثم ألف بعد ذلك حسن صبرى الوزارة ، وكان طبيعيا ألا يشترك أبى فى وزارته .

ولعل القارئ يدهش أن أبى رغم هذا الذى فعله معه حسن باشا صبرى كان دائم المديح له فى العلن ، ولنا نحن أبناؤه المقربون إليه فإننى لم أجد أحدا فى العالم ولا فى التاريخ يفصل بين الحق وبين مشاعره الشخصية ، كما كان أبى يفعل .

وبهذه المناسبة أذكر لأبى قصة جديرة بأن تروى . كان المدرس الخاص الذى يدرس لى مادة الرياضة على صلة وثيقة بأسرة وزير وفدى كبير ، وكنت خليقا أن أذكر اسم الأستاذ لولا خشيتى أن يكشف اسمه عن شخصية الوزير الوفدى ، وهو أمر لا أقبله فإننى إن فعلته أكون بهذا قد خرجت عن النهج الذى انتهجه أبى والذى سيتضح لك من هذه القصة . جاء أستاذ الرياضة وطلب إلى أبى أن يحدد موعدا ليلقاه فيه أخو الوزير الوفدى الكبير . وجاء الأخ والتقى بأبى ، وإذا به يقدم أوراقا لأبى تثبت أن الوزير الوفدى يأكل أموال إخوته ويغتصبها لنفسه ، وطلب الأخ إلى أبى أن ينشر هذه الوثائق فى جريدة السياسة التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ، وإذا بأبى يقول له :

ـــ يا ابنى نحن لا نحارب خصومنا السياسيين بالإيقاع بينهم وبين إخوتهم وأسراتهم ، فهذه أمور لا تتصل بالسياسة الشريفة . أنا لا أعرف أخاك معرفة شخصية ولكننى مستعد أن أدعوه إلى بيتى وأدعوك أنت وإخوتك معه وأصفى ما بينكم من خلافات فى جلسة أسرية . أما أن

أنشر هذه الخلافات الخاصة فليس من أخلاقنا .

وانصرف أخو الوزير الوفدى ومعه أوراقه .

ونعود إلى حسن باشا صبرى ..

وحدث أن اختلف السعديون مع حسن باشا صبرى ، وتركوا الوزارة ، وجاء موعد انتخابات الرئاسة لمجلس النواب ، وكان رئيس المجلس أحمد باشا ماهر ، وكان لا بد أن تجرى الانتخابات حسب النص الدستورى ، ورشح حزب الأحرار أبى كما قدمت ، وكان نجاح أبى مرجحا .

وفى أثناء حملته الانتخابية وقبل موعد الانتخاب بيومين ، كنا جالسين مع أبى أنا وخالى على واثنان أو ثلاثة من الأصدقاء وكان باب المكتب مغلقا ، ففوجئنا بالباب يفتح بقوة ، وتشريفاتى رئيس الوزراء واقفا به ، وكان اسمه الأستاذ ميشيل ساويرس وكان معروفا بأدبه الجم ، وكان يعمل مع كل رؤساء الوزراء لأنه لم يكن له شأن بالسياسة مطلقا وإنما كان خبيرا بشئون وظيفته . صاح ميشيل ساويرس فى دربة ومران :

ـــ دولة رئيس الوزراء .

وقام أبى إلى بهو المنزل وتبعناه ، ورأينا حسن باشا صبرى يحتضن أبى وهو يقول :

ـــ أهلا سعادة رئيسنا العظيم .

ورحب به أبى ودخلا معا إلى حجرة الاستقبال ، وأُغلقت عليهما الأبواب ، وبقى معنا فى المكتب ميشيل ساويرس نتحدث فى أى شىء ما عدا السياسة .

وطالت الجلسة بين أبى وبين رئيس الوزراء . وأخيرا خرجا وودع أبى رئيس الوزارة وشملنا الحبور . فلو لم يكن نجاح أبى مرجحا ما زاره رئيس الوزارة لتصفو علاقته به . فقد أدرك أن الأمور لن تستقيم إلا إذا كان رئيس مجلس النواب على علاقة طيبة مع رئيس الوزراء .

وجاء موعد الانتخابات ، وبدأ اليوم بداية طبيعية ، وقد كان لافتتاح البرلمان فى ذلك العهد مراسم رائعة .. كان الملك يركب عربة تجرها خيول والعربة مفتوحة ، وتسير فى طرقات القاهرة من عابدين إلى مجلس النواب ، ويكون رئيس الوزراء بجانب الملك فى هذا الموكب تحف بهما الخيول يركبها الحرس الملكى ، ويتقدم الموكب الموتسيكلات . وتقف جموع الشعب على الصفين تصفق وتهلل ـــ شأنها دائما ـــ حتى يصل الموكب إلى دار البرلمان وتنطلق المدافع مؤذنة بوصول الموكب . ويدخل الملك إلى قاعة مجلس النواب . ويجلس بين تصفيق الأعضاء على كرسى العرش بالمجلس ، الذى لم يعد موجودا الآن بالقاعة وإنما انتقل إلى متحف مجلس النواب . وبعد ذلك يبدأ رئيس الوزراء فى إلقاء خطبة العرش ، وكان المفروض أن الملك هو الذى يلقى خطبة العرش ولكن لأن الدستور النيابى بدأ فى عهد الملك فؤاد الذى كان لا يجيد العربية ، فقد استقر العرف الدستورى على أن يلقى رئيس الوزراء خطبة العرش باسم الملك فيقول : « وستعمل حكومتى » لأنه يتكلم بلسان الملك لا بلسان رئيس الوزراء .

بدأ حسن باشا صبرى يلقى الخطبة ، ولكن فجأة يسقط حسن باشا صبرى على الأرض مصابا بأزمة قلبية لا تمهله دقائق ويلقى ربه ، ويقوم

الملك عن عرشه إلى حجرته بالمجلس ويعلن تأجيل افتتاح البرلمان لأول مرة فى التاريخ ولآخر مرة أيضا ، فإن هذا الحدث ليس من شأنه أن يتكرر ويموت رئيس الوزراء وهو يلقى خطاب العرش ، بل أحسب أن هذا الذى وقع لم يقع فى أى بلد آخر على مدى تاريخ الحياة النيابية فى العالم .

وألف الوزارة بعد حسن صبرى المرحوم حسين سرى باشا ، ولم يشرك فى الوزارة رشوان محفوظ باشا الذى كان طامعا فيها كل مطمع . ويغضب رشوان محفوظ فيطلب من أنصاره من نواب الصعيد ألا ينتخبوا مرشح الحزب الذى ينتمى إليه — والذى كان أبى — رغم صداقة رشوان باشا لأبى ، فينسلخ من أنصار أبى أكثر من سبعة عشر صوتا . ويصنع الصنيع نفسه حفنى محمود شقيق محمد باشا محمود للأسباب نفسها التى أغضبت رشوان محفوظ . وكان أنصار حفنى محمود حوالى عشرة نواب ، وهكذا يفقد أبى قرابة خمسة وعشرين صوتا ولم يكن محتاجا إلا لأحد عشر صوتا لينجح .

وهكذا شاء الله أن يسىء حسن صبرى باشا إلى أبى حيا وميتا . حيا حين رفض أن يزامله فى الوزارة ، وميتا حين تسبب موته فى انسلاخ ما يقرب من خمسة وعشرين صوتا عن انتخاب أبى لرئاسة مجلس النواب .

كان محمد باشا محمود على قيد الحياة فى أثناء هذه الانتخابات ، ولكنه كان مريضا لا يترك غرفته . وقد زاره أبى وأبدى الرجل العظيم أسفه لتفتت كلمة الحزب . وكان أكبر أسف الزعيم النبيل الذى اشتهر بهذا اللقب ما فعله أخوه حفنى وما فعله قريبه رشوان محفوظ . ولكن أبى قال له ليخفف عنه سخطه على الحزب : إن الانتخابات قد جرت فى غيبة

الزعيم ، وحين تسترد صحتك إن شاء الله ستعود وحدة الحزب وسيسترجع تماسكه .

وشاء الله أن يختار محمد باشا محمود إلى جواره ، وانقسم الحزب حول الرئيس الجديد .. حول من يختاره خليفة للزعيم الراحل . منهم من كان يؤيد مصطفى باشا عبد الرازق وعلى رأسهم أحمد باشا عبد الغفار لصلته الوثيقة بأسرة عبد الرازق ، وبحجة أن هذه الأسرة قد ضحت باثنين من زعمائها فى سبيل الحزب .

والفريق الآخر كان يؤيد الدكتور محمد حسين هيكل باشا مرتئيا أنه أكثر خبرة بالحياة السياسية من مصطفى باشا الذى عرف عنه العزوف عن المجادلة أو المصاولة .

وأنت ترى كم كان كل مرشح من المرشحين يمثل قمة فى الثقافة العربية وواجهة مشرقة مضيئة لمصر حتى يومنا هذا .

على أية حال رأى الحزب أن يلجأ إلى عبد العزيز باشا فهمى يرجوه أن يقبل الرئاسة لفترة قصيرة حتى يستقر الحزب على واحد من المرشحين العلَميْن .

وقبل عبد العزيز باشا رغم ضعف صحته ، وأصبح رئيسا للحزب ، وانتخب هيكل باشا نائبا لرئيس الحزب .

حين أصبح عبد العزيز باشا فهمى رئيسا للحزب فإن أول ما قاله لأبى إنه لم يقبل رئاسة الحزب إلا ليرفع الظلم الذى أوقعه الحزب على أبى ، مرتئيا أن بقاءه بعيدا عن الوزارة طوال هذه المدة يدل على أن الحزب لا يعرف كيف يقدر رجاله . وكان عبد العزيز باشا يحب أبى غاية الحب ،

وأغلب الأمر أن ذلك الحب يرجع إلى تقارب أخلاق الرجلين تقاربا لصيقا ، فقد كان كلاهما لا يخشى فى الحق لومة لائم ولا يمنعه شيء عن محاربة الظلم وعن الانتصار للعدالة والشرف مهما تكلفا فى سبيل ذلك من خسائر ، مادية كانت هذه الخسائر أم كانت أدبية ، وكان عبد العزيز يضع يده على صدر أبى ويمررها عليه وهو يقول هذا الصدر كله إخلاص .. كله إخلاص .. ويكررها .

وكنت أزور عبد العزيز باشا فهمى فى رفقة صديق عمرى عبد الفتاح الشناوى فكان يقول : « مفيش زى أبوك فى كل السياسيين دول ، مفيش زى أبوك » .

وأهدانى مرة كتابه عن الحروف اللاتينية فكتب الإهداء « لسيدى ثروت بك أباظة » وكدت أدوخ من هول الكلمة صادرة عن هذا الجبل الشامخ من العلم والسياسة والقانون والوطنية . وكنت ذاهبا فى ذلك اليوم إلى عمى عزيز باشا أباظة وكانت معى تجارب روايته العباسة ، فلم أترك حقيبتى فى السيارة وإنما صحبتها معى ، وقلت لعمى عزيز :

ــ تصور أن عبد العزيز باشا فهمى كتب لى إهداء يقول فيه كذا ؟!

ولم يصدق عزيز باشا وقال لى :

ــ الفضاء واسع .

وهى عبارة تقال حين يسمع الإنسان شيئا يتصور أنه « فشر » ، ففتحت حقيبتى وأنا أقول :

ــ ولماذا ؟ لا واسع ولا ضيق . هاك الكتاب .

وقرأ عزيز باشا الإهداء وبدا عليه الذهول الذى أصابنى .

نعود إلى عبد العزيز باشا فهمى وأبى والوزارة . فوجئ أبى بعبد العزيز باشا فهمي يقول له : حسين سرى يعتمد على حزب الأحرار وحده فى المجلس ولا يمثل الحزب إلا خمسة وزراء فقط .

وبجرأة عبد العزيز باشا فهمى المعروفة قابل حسين سرى وأصر أن يمثل الأحرار الدستوريين فى الوزارة سبعة وزراء ، وتم التعديل فعلا فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤١ ودخل أبى وزيرا للشئون الاجتماعية ورشوان محفوظ وزيرا للزراعة .

واستقبل تعيين أبى وزيرا برنة فرح كبرى فى الشرقية وفى مصر جميعها ، وأذكر أن مصورا فتوغرافيا كان فى شارع من أهم شوارع القاهرة وضع صورة أبى ورشوان باشا فى معرض صوره الذى يطل على الشارع ، وكتب تحتها بخط أنيق الوزيران الجديدان .

بقيت هذه الوزارة فى الحكم قرابة شهر ، وكانت الشرقية تقيم حفل تكريم لأبى بمناسبة توليه الوزارة وكان اليوم المحدد لهذا التكريم هو اليوم الذى استقالت فيه الوزارة . ولم يشأ أبى أن يذهب إلى الزقازيق وقد استقالت الوزارة ، وكان سبب الاستقالة أن سرى باشا كان قد أزال الخلافات التى كانت بينه وبين الحزب السعدى ، وتم الاتفاق بينهما على أن يشارك الحزب السعدى فى الوزارة ويمثله فيها خمسة وزراء ، فكان طبيعيا أن تستقيل الوزارة ويعاد تشكيلها وينقص عدد الوزراء من حزب الأحرار الدستوريين إلى خمسة وزراء بدلا من سبعة . وكان طبيعيا ألا أذهب أنا أيضا إلى الزقازيق لحضور الحفلة فقد كنت يومها لا أدرى إن كان المكرم أبى سيظل فى الوزارة أم سيخرج منها .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم دق جرس التليفون فى منزلنا وكان أبى نائما فى القيلولة . فما كان رحمه الله يعنيه أن يبقى فى الوزارة أو لا يبقى . فقد كانت شخصيته أكبر من أى منصب . رفعت سماعة التليفون وجاءنى الصوت على الطرف الآخر :

ــ منزل معالى الأستاذ إبراهيم بك دسوقى أباظة ؟

ــ نعم .

ــ معالى الوزير موجود ؟

ــ من يريده ؟

ــ مجلس الوزراء .

فلم أشأ أن أخبره أن أبى نائم ، وإنما تجرأت وقلت للمتحدث :

ــ نعم موجود .

وتجرأت مرة أخرى وأدخلت التليفون إلى أبى فى قيلولته ، وكان المتحدث يستدعى أبى للذهاب إلى مجلس الوزراء فى الساعة السادسة . ووعد أبى بالحضور ، وطلب منى أن أتركه ليكمل قيلولته وكأن شيئا لم يحدث . كم كان عظيما لا يهزه عاصف من فرح أو غيره .

وعاد أبى إلى الوزارة فى وزارة الشئون الاجتماعية ، وخرج اثنان من وزراء حزب الأحرار الدستوريين ، من بينهما رشوان باشا محفوظ الذى عين قبل شهر من الوزارة الجديدة ، وكانت هذه آخر مرة يشترك فيها فى الوزارة .

بقيت هذه الوزارة فى الحكم حتى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الشهيرة ، حين حاصر الإنجليز القصر الملكى وطالبوا بتعيين النحاس باشا رئيسا

للوزارة أو يعزلوا الملك فاروق . وكان ما كان من اجتماع زعماء الأحزاب ورؤساء الوزارات السابقين بقصر عابدين ، وعرض المجتمعون على النحاس باشا أن يؤلف وزارته مؤتلفة من الأحزاب ليواجه الحالة الخطيرة التى تمر بها البلاد ، فرفض هذا العرض بكل إصرار ، وصاح أحمد ماهر باشا فى وجه النحاس بكلمته الشهيرة إنك تأتى إلى الحكم على أسنة الحراب الإنجليزية ، فلم يأبه النحاس بهذا وخضع الملك لتهديد الإنجليز وأصدر مرسومه بتأليف الوزارة .

٣

ولا أنسى فى اليوم التالى كنت أركب السيارة الخاصة ، لا سيارة الوزارة طبعا مع أبى ، وقلت له : كيف سيواجه النحاس الجماهير بعد هذا ؟ وفى ذكاء السياسى العملاق قال لى : سيقول : لقد أنقذت عرش مصر .

وما لبث النحاس أن قال هذه الأضحوكة ، وكأن أبى كان فى عقله حين توقع أنه سيدعى هذا الادعاء . والغريب أن الجماهير الوفدية تجمعت حول مجلس الوزراء لتهنئ النحاس ووزارته القادمة بالحراب الإنجليزية ، وفى أثناء تجمعها حضر إلى مجلس الوزراء السير مايلز لمبسون ، وكان ضخم الجثة بصورة غير مألوفة ، فقد كان طويل القامة إلى حد بعيد كما كان بالغ السمن . والعجيبة أن الجماهير الوفدية حملته على أكتافها وهتفت باسمه ، ولم تشعر بالهوان وهى تحمل المندوب السامى البريطانى على أكتافها بعد أن زلزل عرش مصر . وكان الملك إلى ذلك الحين محبوبا من الشعب حبا لم يحظ به ملك . وقد استطاع بغبائه الشديد أن يبدد هذا الحب بطريقه العربيد الأبله الذى اختاره لنفسه . وأعتقد اعتقادا يقترب من اليقين أن أمه الملكة نازلى كان لها أثر كبير فى اضطراب عقله ومسلكه جميعا بأفعالها المخزية التى كانت ترتكبها ، والتى انتهت بزواجها من أحمد حسنين باشا ، مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس الناس ، ومن باب أدق فى

نفسية ابنها الملك . وما فعلته بعد ذلك أدهى وأمر .

أعلنت وزارة النحاس حل البرلمان وإجراء انتخابات . وطلب حزب الأحرار مقابلة النحاس باشا للاتفاق على الأسس التى سيدخلون عليها الانتخابات . وتحدد موعد اللقاء واختار الحزب أبى وأحمد باشا عبد الغفار ليمثلا الحزب فى مفاوضاته مع النحاس باشا ، وكان اللقاء طريفا ، ولذلك فإنه لم يفر من ذهنى .

قال لهما النحاس باشا :

ــ الانتخابات حرة ، ولكم أن تقولوا ما تشاءون على ألا تذكروا شيئا عن حادث ٤ فبراير ولا تهاجموا الإنجليز نظرا للظروف التى نمر بها ، ولا تذكروا شيئا عن زوجتى ، ولكم بعد ذلك أن تقولوا ما تريدون .

ودهش أبى ولم يتكلم ، وتكلم أحمد باشا عبد الغفار قائلا فى غضب :

ــ وماذا بقى أن نقوله ضد المرشح الآخر ؟ أنقول له أبويا أحسن من أبوك ؟ أم نقول له وشى أحلى من وشك ؟

ولم يرد النحاس وخرج أبى وأحمد باشا دون أن يتفقا مع النحاس ، وعرفت بعد ذلك أن النحاس باشا حين روى هذه الواقعة للهيئة الوفدية قال :

ــ جاءنى من حزب الأحرار معالى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه والولد أحمد عبد الغفار ..

مع أن أحمد باشا كان حاملا رتبة الباشوية عند هذا اللقاء .

وهكذا رفض حزب الأحرار والهيئة السعدية دخول الانتخابات ، وانفرد حزب الوفد بهذه الانتخابات .

ولكن أبى كان حريصا على وجوده فى مجلس النواب ، وفى نفس الوقت لم يستطع أن يخوض الانتخابات العامة وهو سكرتير عام حزب الأحرار الدستوريين .

وهكذا ارتأى أن يدخل أخوه عبد الله بك فكرى أباظة الانتخابات ، وكان فى ذلك الحين سكرتير عام وزارة التجارة ومرشحا أن يكون وكيل وزارة . وكان الدستور يقضى أنه إذا أصبح موظف عضوا بمجلس نيابى فله مهلة ثلاثة أشهر يختار فى أثنائها بين البقاء فى الوظيفة وترك المجلس ، أو البقاء فى المجلس وترك الوظيفة .

وبعد انقضاء المدة استقال عمى عبد الله من المجلس وتقدم أبى للترشيح بالدائرة التى خلت ، ورشح الوفد ضده أحد المحامين اسمه عبد العظيم النادى رسلان . وكانت انتخابات مريرة غاية المرارة جيَّش الوفد لها كل جيوشه من شرطة إلى قوات مسلحة إلى تزوير علنى لا يتوارى ولا يخجل ، وفى هذه الانتخابات كسرت ذراع فكرى أباظة باشا فى بلدة قريبة من الغار بلد المرشح اسمها كفر عوض الله حجازى . وكان من فجور الوفد أنه فى توزيع الناخبين كان يجعل البلاد المؤيدة لأبى تدلى بأصواتها فى بلاد بعيدة عنها كل البعد ، بينما يحرص على أن يجعل الناخبين المؤيدين لمرشحه يدلون بأصواتهم فى بلاد قريبة غاية القرب منهم فلا يتكلفون إلا مشية هينة . أما الناخبون المؤيدون لأبى فقد كان عليهم أن يركبوا السيارات أو يتعذر عليهم الإدلاء بأصواتهم .

أما معركة كفر عوض الله التى كسرت فيها ذراع عمى فكرى فقد تجمع فيها بعض أنصار المرشح الوفدى وبأيديهم العصى الغليظة وأرادوا

أن يمنعوا ممثلى أبى من الاقتراب إلى لجنة الانتخاب فاعتدوا عليهم بالضرب دون أن يراعوا أى معنى للخلق أو قيم الوافدين عليهم .

وتمت الانتخابات ، وكان فوز أبى واضحا ، وتجمعت صناديق الانتخاب بنقطة شرطة ببلدة بردين ، وهى البلدة التى سميت الدائرة كلها باسمها ، وحرص شباب الأسرة أن يبيت فوق الصناديق يتزعمهم عمى عبد الله وقد هيأ له مأمور دائرة الأمير طاهر باشا الذى يملك أبعادية فى بردين مكانا مناسبا يبيت فيه ، بينما لازم شباب الأسرة الصناديق . وحاولت الشرطة وقوات من الجيش أن يخرجوهم من النقطة فكشفوا عن أسلحة مرخصة يحملونها .

وكلم مدير الشرقية أبى فى غزالة ، وكنت بجواره . وقال المدير :

— إننا نرجو أن تأمر بالجلاء عن نقطة بردين .

فضحك أبى وهو يقول للمدير :

— لا أستطيع ، فإننى إن طلبت هذا المطلب من شباب أسرتى فلن يقبلوه .

وسلم المدير أمره إلى الله ، وظل شباب الأسرة مع الصناديق حتى تم فرزها ، وكنا واثقين أنه إذا تخلى الشباب عن الصناديق فإن الوزارة ما كانت لتخجل أن تحل مكانها صناديق أخرى لصالح مرشحها . وتم الفرز ونجح أبى نجاحا باهرا ، وأحست الوزارة أن الشعب غير راض عنها ولكن لا يهم ما دامت باقية فى دست الوزارة

* * *

حين عاد أبى إلى مجلس النواب كان معارضا عنيفا ، ولكن الأغلبية الساحقة كانت وفدية وكان مكرم عبيد باشا قد انشق عن الوفد وكون حزب الكتلة وأصدر جريدة للحزب . وفى ذلك الحين كتب كتابه الشهير المعروف باسم « الكتاب الأسود » وكانت الأحزاب المعارضة تتولى توزيع هذا الكتاب ، وكانت نسخ منه كثيرة توزع من بيتنا . والكتاب جدير بأن نقول عنه إن أعظم التهم فيه لا تساوى شيئا بالنسبة لأيسر ما ارتكب فى عهد الناصرية . فقد كان أعظم ما فيه اعتقال بعض الزعماء السياسيين ، وقد كانوا يعتقلون فى بيوت مريحة ويلقون كل رعاية وعناية ، وما كان أهل هذا العصر يدرون ما يخفيه الزمان فى عهد الناصرية من اعتداء على الأعراض والكرامات والأموال والأنفس ، مع الألوان التى لم تسمع عنها البشرية من التنكيل والعذاب . ولكن على أى حال فى ذلك الحين كان الكتاب الأسود سبة فى جبين الحكم . وقد تقدم أبى باستجواب عن الاعتقالات التى تقوم بها الحكومة ، وفى نفس اليوم المحدد لنظر الاستجواب اعتقلت حكومة النحاس مكرم عبيد باشا . ووقف أبى فى مجلس النواب يندد بهذا التصرف ، وصاح بالحكومة إننا متضامنون مع كل ما فعله مكرم عبيد باشا وكل ما كتبه ، ولتفعل بنا القوى الغاشمة ما تريد .. وقد علق المرحوم كامل الشناوى على هذه الخطبة يومذاك بقوله : لولا خوفى على الرجل لألقيت بنفسى من شرفة الصحفيين لأقبل دسوقى أباظة .

وعاد أبى إلى البيت ، وكنت أتلقى درسا فى اللغة الإنجليزية من أستاذى الذى كان يشرف على دراستى جميعا الأستاذ لويس مرقص ،

الذى أصبح فيما بعد د. لويس مرقص رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . وذكر لنا أبى ما فعله بالمجلس ، ثم نادى عم أحمد وأمره أن ينقل كل نسخ الكتاب الأسود ومنشورات أخرى ضد الحكومة إلى بيت ابن عمه الأصغر الضابط عمر أباظة رحمه الله ، متوقعا أن تفتش الحكومة منزلنا فى نفس الليلة . وقد حدث أن فوجئنا بقوة من الشرطة قبيل منتصف الليل تحاصر المنزل وتقتحمه لتفتش عن الكتاب الأسود والمنشورات . ولكن أين هذا التفتيش مما فعله العهد الناصرى بعد ذلك ؟ شتان لا يقارن ما فعله النحاس بما صنعه بعد ذلك عصر الطغيان .

حسبك أن تعلم أن أبى أمسك بمسدسه ، وقال لقائد القوة : نحن فلاحون وسأسمح لك بتفتيش البيت جميعه ، ولكن لن تدخل الحجرة التى بها السيدات مطلقا .

وقبل الضابط ، فما كان أهونه من تفتيش . وانصرفوا دون أن يعتقلوا أبى وإنما قدموا له كل إجلال واحترام وتوقير .

***

٥

فى يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٤٤ طلبنى أبى من حزب الأحرار الدستوريين وقال لى : إن وزارة النحاس أقيلت ، وإن أحمد باشا ماهر يؤلف الوزارة الآن فى لاظوغلى .

كانت الحرب قد أوشكت على الانتهاء ، وعرف الملك أن الإنجليز لم يعد يعنيهم شأن النحاس أن يبقى فى الوزارة أو لا يبقى فأقال النحاس باشا . سارعت إلى الحزب فوجدت الجموع الحاشدة ، وكان الحزب فى عهد وزارة الوفد محاصرا بالشرطة . وقد خشى أبى أن تعتدى الزحوف القادمة للتهنئة على القوة المحاصرة للحزب ، فاستدعى رئيس القوة وأخبره بسقوط وزارة الوفد ، ونصحه بأن ينسحب هو وقوته حتى لا يتعرض للصدام مع الجماهير القادمة للتهنئة . فراح رئيس القوة يشكر أبى ويدعو له بطول العمر . وانسحب هو وقوته .

علمنا فى الحزب أن مفاوضات تشكيل الوزارة تواجه صعوبات سببها أن مكرم باشا عبيد يصر أن يكون عدد وزراء الكتلة مساويا لعدد وزراء الأحرار والسعديين وكان هذا غير طبيعى ، ولم يكن ماهر باشا موافقا على ذلك . وطال وقت التأليف ولغط الحاضرون فى حزب الأحرار وتناثرت الإشاعات بأسماء المرشحين وأبى فى حجرته بعيد كل البعد عما يدور بين الحاضرين بالخارج . وقد أبى ترفعا أن يذهب إلى لاظوغلى ليشارك فى

تأليف الوزارة ، مع أن هذا كان أمرا طبيعيا . فهو سكرتير عام الحزب ، والمفروض أن يشترك فى تأليف الوزارة .

فى هذه الليلة قمت بتجربة لا أنساها .. حلا لى أن أبث إشاعة أن الملك هدد باستدعاء النحاس باشا إذا لم تؤلف الوزارة فى وقت معقول . ولم تمر دقائق حتى طلبتنى والدتى من البيت وسألتنى : هل صحيح أن الملك استدعى النحاس باشا .

أدركت منذ ذلك اليوم السرعة التى تسرى بها الإشاعة وتحرَّف أيضا .

ووافق حزبا الأحرار والسعديين أخيرا على مطلب مكرم باشا ، وأصبحت المشكلة هى أين يجد وزراء ، فرشح المحامى سيد سليم الذى لم يعرفه أحد فى ذلك الحين وقد نال رتبة الباشوية فيما بعد ، كما رشح طه باشا السباعى ولم يكن عضوا فى حزب الكتلة وإنما انضم إليه ليدخل الوزارة ، وقد كان قبل ذلك يشغل منصب وكيل وزارة .

تألفت الوزارة وأسند إلى أبى منصب وزير المواصلات ، ثم تقلب طوال خمس سنوات فى المناصب الوزارية فكان وزير أوقاف ووزير خارجية .

ولتوليه منصب وزير الخارجية قصة ، ولتركه لها قصة أكثر طرافة ، فقد طلب أحمد خشبة باشا وزير الخارجية أن يتولى منصب نائب رئيس الوزراء ، ولم يكن هذا المنصب معروفا فى التشكيلات الوزارية ، فرفض طلبه واستقال . واختير أبى وزيرا للخارجية ورشح هو رياض عبد العزيز سيف النصر المستشار وزميل دراسة أبى وزيرا للمواصلات ، فتولى

المنصب .

ولكن ما هى إلا بضعة أشهر حتى قبض على أخى رياض بك بتهمة الشيوعية ، وهو إلهام عبد العزيز سيف النصر الذى كان فى مثل سنى ، وقد عرفته بعد ذلك بسنوات حين تزوج بابنة عباس باشا سيد أحمد والد الشيوعى المعروف محمد سيد أحمد وخال أمينة هانم صدقى حرم عزيز أباظة باشا . وقد قبض على إلهام فى العهد الناصرى وعذب تعذيبا وصفته المحكمة التى رفع أمامها قضيته فى عصر الحرية بأنه تعذيب لم تعرفه البشرية . وأغلب الأمر أن هذا التعذيب كان السبب ربما غير المباشر فى موت إلهام دون أن تعلو به السن ، فهو فى مثل عمرى تقريبا .

وعودة إلى أخيه الذى رفض أن يبقى فى الوزارة ، وأخوه متهم بالشيوعية ، فقدم استقالته واستطاع حزب الأحرار أن يقنع أحمد باشا خشبة بالعودة إلى الوزارة ، فعاد إلى وزارة الخارجية ، وعاد أبى إلى وزارة المواصلات .

فى وزارة الخارجية حدثت واقعة لا بد من ذكرها . كان مرتب وزير الخارجية يضاف إليه مرتب وزير تحت بند ما يسمونه بدل تمثيل ، وإذا بأبى يرفض أن يتقاضى بدل التمثيل هذا . وناهيك بمرتب وزير فى ذلك الحين ! ولم يكن أبى واسع الغنى بدليل أن الإصلاح الزراعى لم يأخذ منه قيراطا واحدا ، وقال المسئولون فى الوزارة لأبى : معاليك ستحرج الذين قبلك والذين بعدك .

قال :

ـــ أما الذين قبلى فلا شأن لهم بما أفعل لأنهم سبقونى فى الوزارة ، أما

الذين بعّدى فإذا كانوا قادرين فليفعلوا مثلما أفعل ، وإذا كانوا غير قادرين فلا لوم عليهم إذا لم يفعلوا وتقاضوا بدل التمثيل . أما أنا فلن آخذ من الحكومة نقودا مقابل الدعوات التى يحتم علىّ منصبى أن أقيمها فى بيتى .

وأصر على رفضه .

٦

حصلت على شهادة الثانوية العامة ، وكان اسمها فى عهدنا التوجيهية فى عام ١٩٤٦ ، وكان أبى يومذاك وزيرا للأوقاف فى وزارة صدقى باشا التى قامت بمفاوضات صدقى بيفن ، ولم يشترك الوفد فى المفاوضات واستطاع أن يثير المظاهرات الصاخبة فى الجامعة قبل أن تبدأ المفاوضة . ومع أن صدقى باشا حصل من ستانجيت القائد الإنجليزى على تصريح من جانب واحد ، أن تنسحب جنود الاحتلال من القاهرة وجميع عواصم مصر لتقيم فى ثكنات لها بالقنال ، إلا أن هذا لم يخفف من حدة المظاهرات فى الجامعة . ولم يشترك السعديون مع صدقى باشا فى الوزارة فكان يعتمد على الأحرار الدستوريين وحدهم فى الفترة الأولى من حكمه .. وقد انضم شباب السعديين إلى الوفديين فى الجامعة . ولعله ينبغى أن أذكر جلسة مجلس النواب التى فاز فيها صدقى باشا بالثقة رغم أن السعديين لم يشتركوا معه فى الوزارة ، وكان عددهم يزيد على الأحرار ببضعة مقاعد .

فى هذه الجلسة هاجم السعديون صدقى باشا هجوما ضاريا . فقد حل محل رئيسهم النقراشى باشا الذى أصبح رئيسا للوزارة بعد مقتل الزعيم العظيم أحمد ماهر باشا برصاصة خائنة ، وادعى القاتل أنه قتله لأنه كان يريد أن يدخل الحرب مع الإنجليز . وكانت حجة ماهر باشا أن الحرب

كانت موشكة على الانتهاء واشتراك مصر فيها لن يكلفها شيئا ، ولكنه سيتيح لها أن تكون عضوا فى هيئة الأمم وتعرض قضيتها على العالم . ولكنه قُتل ، ودخلت مصر الحرب شريكة مع الحلفاء فى عهد النقراشى باشا الذى خلَفَ ماهر باشا فى رئاسة الوزارة .

ولنرجع إلى جلسة مجلس النواب . هاجم السعديون صدقى باشا وراحوا يذكرونه بالعنف الذى عرف عنه فى وزارة سنة ١٩٣٠ . وظل الرجل صامتا حتى انتهى طالبو الكلمات من هجومهم ووقف العملاق العجوز يقول فى ثبات ما معناه : تحدثتم عن صدقى سنة ٣٠ ولن أدافع عنه فأنا مقتنع بكل ما فعلته فى تلك الوزارة . ولكن صدقى سنة ٣٠ هو نفسه الذى كان عضوا مع المرحوم أحمد ماهر باشا والنقراشى باشا فى الجبهة القومية ، وهى جبهة تكونت بعد حادثة ٤ فبراير لتناهض وزارة النحاس باشا — وكان أبى وهيكل باشا من أعضائها — فذكر صدقى باشا زمالته لزعيمى السعديين فيها ثم قال فى حسم : « هذه الجبهة يا حضرات النواب التى كان لها الفضل فى وجودكم على هذه الكراسى التى تجلسون عليها الآن » . وراح يشير بيده إلى مقاعد المجلس العتيد ، والعجيب أن صدقى باشا نال الثقة مع تحديه للأغلبية السعدية فى المجلس .

حين بدأت الدراسة فى الكلية كانت بداية مضطربة كل الاضطراب ، وكانت المظاهرات يومية حتى أننا لم نكمل يوما دراسيا قط . وفوجئ الطلبة بصدقى باشا فى الكلية وكنت قد عدت إلى البيت ، وإنما عرفت ما دار بين الطلبة ورئيس الوزراء من حوار ، فقد قال لهم :

— ماذا تريدون ؟

— خروج الإنجليز .

— وماذا نفعل نحن غير ذلك ؟ ألا يحسن بكم أن تذاكروا أنتم حتى نجد فى مصر رجالا مثقفين نعتمد عليهم بعد خروج الإنجليز من مصر !

وطبعا لم يجد الطلبة شيئا يجادلون به منطق الرئيس العبقرى ، وانصرف صدقى باشا .

ولكن المظاهرات استمرت كأن شيئا لم يحدث ، فكنا نذهب إلى الكلية ونجلس فى المدرجات ، وقبل أن يدخل الأستاذ تنفجر المظاهرة ونخرج .

وما هى إلا أيام حتى أعلنت الصحف أن رئيس الوزراء إسماعيل صدقى باشا سيلقى فى الساعة كذا بيانا بالإذاعة حول مظاهرات الجامعة . وتجمعنا حول أجهزة الراديو لنستمع إلى بيان رئيس الوزراء الذى لم يستغرق سوى بضع ثوان قال ما معناه :

« يتدخل بعض الغوغاء بين صفوف الطلبة ويثيرون الشغب ، ولما كانت الحكومة حريصة على استتباب الأمن فسوف تعمل على ذلك بالطرق المشروعة وغير المشروعة » .

وذهبت إلى الجامعة فى اليوم التالى فوجدت الحكومة قد أمرت بعودة الشرطة إلى مقارهم ، حتى أننا لم نجد شرطيا واحدا من القوات الكبيرة التى كانت تحيط بالجامعة . ودخلت إلى المدرج فلم أجد مكانا أجلس فيه إلا بشق الأنفس ، والذين دخلوا بعدى ظلوا واقفين .

ولم تقم مظاهرة واحدة فى عهد صدقى باشا بعد بيانه هذا حتى تذاءب عليه زعماء مصر من المستقلين ورفضوا المعاهدة التى كانت أحسن ما

توصلت إليه مصر فى تاريخها ، والتى تفضل — لا شك — المعاهدة التى خرج بمقتضاها الإنجليز بعد ذلك بأعوام عديدة ، ويكفى المعاهدة التى خرج بموجبها الإنجليز أنها أفقدتنا السودان إلى الأبد .

وقد كان أبى متحمسا لمعاهدة صدقى بيفن ، وأذكر أنه فى أيام تكوين وفد المفاوضين جاء أبى إلى البيت متأخرا قليلا عن موعده ، وجلسنا على مائدة الغداء وكان على المائدة بعض ضيوف لنا . وقال أبى :

— لقد خرجت من الوزارة .

وكان وزيرا للأوقاف فى ذلك الحين ، فقلت أنا :

— إذن انضممت إلى وفد المفاوضة .

— نعم .

ولم تمض دقائق حتى دق جرس التليفون فتركت المائدة وذهبت أجيب التليفون ، وطالعنى صوت لم يغب عنى طبعا :

— معالى الباشا موجود ؟

وقلت : نعم .

وأردت أن أستوثق من الصوت فقلت :

— نعم ، من يريده ؟

وجاء الصوت :

— صدقى باشا .

وكان هو شخصيا المتحدث ، ولم يكن مكتبه .

وكلمه أبى ، وعدت أنا طبعا إلى المائدة حريصا أن أخلى غرفة المكتب التى بها التليفون . وجاء أبى إلى المائدة وقال :

ـــ لقد بقيت فى الوزارة .

وعرفنا سر هذا التعديل بعد ذلك . فبعد أن كان الرأى قد استقر على أن يكون وفد المفاوضين من أحزاب الوزارة ، عدل عن هذا الرأى ليتكون الوفد من رؤساء الوزارات السابقين ، ومن رئيس حزب الأحزاب الدستوريين والسعديين .

ولم يغضب أبى رغم ذلك ، وبعد أن أجمع رؤساء الوزارات على رفض المعاهدة حقدا منهم أن يقوم صدقى باشا بهذا النجاح الخالد ، وخوفا من بعضهم مما أثاره عليه حزب الوفد الذى لم يرع وجه الله ولا وجه الوطن .

وأذكر فى هذا الشأن حديثا بين صدقى باشا ولطفى باشا السيد فى هذا الشأن :

قال صدقى باشا :

ـــ ألم يصل بنا السن والخبرة يا لطفى أن نقود نحن الرأى العام ؟

فقال لطفى باشا السيد :

ـــ أريد أن أموت على سريرى يا إسماعيل .

واستقال صدقى باشا من الوزارة ، وتألفت وزارة جديدة برئاسة النقراشى باشا وكان أبى وزيرا للمواصلات بها ، وأبى فى شجاعته ووطنيته أن يخفى إعجابه بمعاهدة صدقى بيفن فكتب هذه المقالة بأهرام ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ رغم علمه أن النقراشى باشا يكره صدقى باشا كل الكراهية ، ورغم التيار الجارف الذى ساد حينذاك ضد المعاهدة .

ظهر أهرام ذلك اليوم وبه عنوان : آراء وأفكار « حول مشروع

المعاهدة » ، ثم عنوان مقالة أبى « لماذا لا أوافق على المعاهدة ؟ » وقالت الأهرام:

* * *

نشرنا منذ يومين بحثا لحضرة الشيخ المحترم زكريا مهران باشا عنوانه « لماذا لا أوافق على المعاهدة ؟ » وننشر اليوم بحثا لمعالى إبراهيم دسوقى باشا يرد فيه على من سأله « لماذا يوافق على المعاهدة ؟

قال : الجواب سهل بسيط ، ذلك لأننى أحب بلادى وأعتقد أن المعاهدة تحقق استقلالها وتحدد يوم الجلاء « بغير دماء .. »

ولست أتكلم عن مشروع المعاهدة فأتناول بالبحث سائر مواده وأشرح ما أدخله عليها دولة صدقى باشا من تحسين واضح جلىّ عظيم ، بل أكتفى بالكلام عن مادة الدفاع المشترك ، فإن عيوب المعاهدة كادت فى نظر المعارضين تنحصر فيها . وكانت تلك المادة فى أول أمرها مشوبة بشىء من الغموض فأزال دولة صدقى باشا غموضها ، ثم أحاطها بتحفظات قوية كافية ، ودعمها لمصلحة مصر بسياج جعل المساس باستقلالها ـــ اعتمادا عليها ـــ ضربا من المستحيل ، إلا إذا تجرد المصريون من الوطنية والرشد والكرامة .

وكان المفاوضون قد قبلوها جميعا عدا واحداً ، قبلوها على ما كان بها من غموض . فلما أزال صدقى باشا غموضها فى مفاوضته الأخيرة وجلا ما كان فيها من إبهام ولبس مريب ، وأصبحت لا غبار عليها ولا خوف منها ، رفضها المعارضون وادعوا أنها الحماية مقنّعة بل إنها الحماية سافرة ..

١ ـــ لم يكن هناك نص على أن رأى اللجنة استشارى ، فجاء النص

صريحا .

٢ — وأصبحت لا تجتمع إلا إذا دعتها الحكومتان للاجتماع .

٣ — ولا تنظر إلا فى البيانات المتفق عليها من الحكومتين .

فبربك قل أيها المعارض ما الذى يخيفك منها بعد ذلك ، وما الذى تخشاه إذا كنت لا تريد أن تجتمع فليس ثمة ما يكرهك على دعوتها ؟ وإذا رأيت أن تدعوها بسبب كوارث تريد أن تتخطاها أو عواصف تخشى عقباها ، فاحذر أن تقبل فى بيانات الإنجليز شيئا يضر باستقلالك أو تدخلا منهم فى شئون بلادك ، وامتنع عن البحث فى أى أمر لم يرد فى بيانك .

وفى آخر الأمر إذا دعوتها للبحث فى المسائل الواردة فى البيان الذى قدمته أنت إليها ، ثم لم يعجبك رأيها فارفض لأن رأيها استشارى وحكومتك لها حق الرفض .

هكذا تقول معاهدة صدقى .

أتريد أن تعرف بماذا أجاب أحد الشجعان من المفاوضين ؟ إنه قال وكلمته مشهورة : إنى لا أطمئن على أى حال ، لأن الإنجليزى من أعضاء اللجنة إذا نظر إلى المصرى فإن المصرى ترتعد فرائصه . فأجاب صدقى قائلا : إذًا يا أخى ، إن مصر إذا صح هذا لا تستحق الاستقلال !!

أى عار يسربل هذه البلاد إذا صدق هذا المفاوض ؟ وكيف يصور لهم الوهم أن المصرى يرتعد جزعا وينتفض خوفا وهلعا إذا ألقى عليه البريطانى نظرة تهديد ؟

وقرأت فى « الأهرام » بحثا لشيخ معارض هممت بأن أرد عليه ،

ومضيت فى تلاوته إلى أن وجدته يقول : وما علينا ــ لو صح أن معاهدة ١٩٣٦ لا تزال قائمة ــ إذا انتظرنا سبع سنوات أخرى بعد السنوات الثلاث ؟ فحدقت فى جملته ووقعت من يدى « الأهرام » وقلت على الوطنية السلام . ثم عدت إلى الجريدة فأخذتها وإلى الجملة المشئومة فحدجتها واسترسلت فى القراءة ، فإذا به يقول بأن الإنجليز لا يعنيهم الآن إلا الاحتلال المادى الاقتصادى ، وهم يربطوننا برباط الاسترلينى ، فعجبت لهذه « السلطة » إذ ما دخل الاسترلينى فيما نحن فيه ؟ وفى العالم ممالك عديدة مستقلة تربط نفسها به طائعة مختارة ، وجميع كبار الاقتصاديين فى مصر يرون الانفصال عن دائرة الجنيه الاسترلينى فى الوقت الحاضر كارثة مالية .

وبهذه المناسبة أذكر أن الكثيرين طوح بهم العناد إلى اللجاجة فى المقارنة بين معاهدة ١٩٣٦ ومشروع المعاهدة الأخيرة . ومعاهدة ٣٦ تفرض على مصر محالفة أبدية بينما تفرض هذه المعاهدة عشرين عاما . ومعاهدة ٣٦ تبقى جنود الإنجليز بعدها إذا ثبت أن مصر أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها . ومعاهدة ٣٦ لا تسمح بالجلاء عن المدن المصرية إلا إذا بنينا ثكنات من منطقة القنال تتسع لجيوش الاحتلال تكلف خزينتنا ما لا قبل لنا به ، وقد بذل المغفور له محمد محمود باشا جهودا جبارة لاشتراك الإنجليز فى النفقات لإقامة هذه الثكنات . وقد فات الباشا عضو الشيوخ المعارض صاحب مقال « الأهرام » أن البريطانيين يشترطونها فى معاهدة ٣٦ .

ولا أذكر كل ما فى معاهدة ٣٦ من عيوب فقد قبلها المصريون على

علاتها وبكل عيوبها ، من محالفة أبدية إلى بعثة عسكرية إلى تدخل فى شئوننا الداخلية . ورفرف سرب من الحمام على المفاوضين عند قدومهم ، وأطلقت المدافع تكريما لهم ، وأسرع مكرم باشا إلى الجامعة يخطب الطلبة ساعات ويؤكد لهم قول النحاس باشا « اسجدوا لله شكرا فقد جئتكم بمعاهدة الشرف والاستقلال » .

ثم تناول معاليه مسألة السودان فقال :

ــ لم يكن يدور فى خلد الكثيرين أن صدقى باشا سيأتى بالنصوص التى أتى بها « وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى » والفرق بين ما كان المفاوضون قد طلبوه وما جاء به صدقى باشا هو أنهم كانوا يرون التأجيل ، ورأى دولته التعجيل .

أما ما يدعيه المعارضون من أن النص يحتمل التأويل ويخول للسودان حق الانفصال فلا نسلم به بأى حال . وقد فسر دولة صدقى باشا النصوص بما يطمئن أشد الناس تعنتا وأكثرهم مكابرة ، وترك الباب مفتوحا بعد ذلك للمفاوضة لأن التعاون بين المملكتين على العمل لرفاهية السودان وترقيته وجعله أهلا للحكم الذاتى يجعل لنا الحق فى المطالبة بتمكين مصر من ممارسة حقوقها ، ويكفل لها الهيمنة التى كفلتها المعاهدة لها . وتفسير دولة صدقى باشا هو الذى نقره ونعتمد عليه ، وكل ما يحصل علية السودان بعد ذلك من حقه فى الحكم الذاتى والنظام الذى يترتب عليه لا يخرج عن نطاق وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى . يبقى مجلس الأمن وأمر المعارضين فيه غريب ، فقد كان مجلس الأمن رجسا إلى وقت قريب ، وحمل الوفد على سياسة الاشتراك فى جمعية الأمم المتحدة

وأخذ يشهر بها وينكر الفائدة من وجودها ، وقتل الشهيد أحمد ماهر فى سبيلها .

فلما وجدت وتكونت هيئاتها وأصبحت مصر من أعضائها ، وتشكك بعض المصريين فى نتيجة عرض قضيتنا عليها انقلبت جمعية الأمم خيرا عميما وفوزا للحرية عظيما وقاضيا عادلا صادقا رحيما .

وأراد الله أن يجلو الشك باليقين فطرح ممثلنا فى هذه الجمعية منذ أسبوع واحد مسألة الجلاء .. جلاء الجيوش الأجنبية عن بلاد الأمم المشتركة فى الجمعية ، وأخذت الأصوات فأسفرت عن ٢٩ صوتا بالرفض و ١٣ صوتا بالموافقة على الاقتراح أكثرها من الأمم العربية . هذه النتيجة العظيمة ، هذا البرهان القوى الملموس الدافع ، هذا الرد السريع الصريح ، لا يفتح عيون المعارضين ولا يبصرهم بالعواقب يتغنون بأنشودتهم المحبوبة : مجلس الأمن ! مجلس الأمن !

ولست فى حل من الكلام عن مجلس الأمن ، ومن الوطنية أن أكف عن الاسترسال فى بيان رأيى فيه ، ولكنى أحيلكم إلى ساستنا الوطنيين الأكفاء المخلصين الذين خبروه عن قرب ، واشتركوا فى اجتماع هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن وفى سائر المؤتمرات فوقفوا على اتجاهها وتبينوا حقيقة نياتها .

هؤلاء الساسة المصريون لا يرقى الشك إلى وطنيتهم ، ولا يجرؤ إنسان على الطعن فى كفاءتهم . فقد رفعوا رءوسنا ولفتوا أنظار العالم لنا ، فوقف باهتا مشدوها مأخوذا بتلك الجرأة العجيبة والكفاءة الممتازة والحماسة الوطنية التى جعلت بريطانيا تتململ متوجعة تشكو ، وكانت تنتظر منهم

بعض مظاهر الود والمجاملة .

أنأخذ بكلام رجالنا هؤلاء وتلك خبرتهم وهذه مواقفهم ؟ أم نأخذ برأى المتفائلين الذين كانوا متشائمين ، ونتأثر بحملات بعض المعارضين وقد كانوا إلى وقت قريب موافقين يحبذون ويصفقون ؟

إذا وقعت المعاهدة فإن الجلاء عن القاهرة والإسكندرية وبلاد الدلتا يتم فى شهر مارس ، أى بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وبعد ذلك بسنتين ونصف السنة يتم الجلاء عن بلادنا بأسرها فى يوم محدد هو أول سبتمبر ، والفضل لصدقى باشا فى هذا التحديد . أتريد من وطنى صادق الوطنية ومن مصرى مخلص صادق النية أن يتردد فى الموافقة على خلاص بلاده من أسرها واستكمال حريتها واستقلالها ، وتريد من مصرى نزيه عاقل يحب بلاده ويفديها بحياته أن يستبدل ذلك بقضية خاسرة يقدمها إلى محكمة يعتقد أنها ستحكم فيها بالإعدام ولديه على ذلك ألف برهان ؟؟

كان المغفور له قاسم أمين يقول :

« أعرف قضاة يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل »

وأنا أعرف رجالا يسيئون إلى وطنهم ليشتهروا بالوطنية » .

وإلى هنا انتهى ما جاء بالأهرام على لسان أبى .

* * *

كانت هذه المقالة ذات صدى بعيد عندما نشرت ، ولكن متى ناقش الوفديون بالمنطق ؟ لقد رفضوا أن يتحقق هذا النجاح الفائق الذى بلغه صدقى على غير أيديهم ولتذهب مصر والوطنية إلى أى جحيم تشاء .

* * *

فى وزارة النقراشى باشا التى أعقبت استقالة صدقى باشا ، قررت الوزارة أن يذهب وفد مصرى إلى هيئة الأمم وتكوّن الوفد وكان وزير الخارجية من بين أعضائه ، وتولى أبى وزارة الخارجية بالنيابة .

رأس وفد مصر النقراشى باشا ، وبلغت وطنية النحاس الحضيض فى هذه الأيام فقد أرسل برقية إلى هيئة الأمم يقول فيها : إن هذا الوفد لا يمثل مصر . كان ينبغى لو كان يحمل ذرة من الشعور بالوطنية أن يؤيد النقراشى باشا ، والدرجة الأدنى أن يصمت وينتظر . أما إرسال برقية إلى هيئة الأمم يبلغها فيها أن النقراشى باشا لا يمثل مصر فتلك كبيرة من كبائر الخيانة العظمى لا نستطيع أن ننساها للنحاس باشا أو لحزب الوفد .

فى هيئة الأمم وعلى ملأ من العالم وقف النقراشى باشا وصاح فى وجه الإنجليز : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة . ودوت الصيحة فى أنحاء الدنيا فهى المرة الأولى التى تسمع فيها إنجلترا مثل هذه العبارة ، وهى فى تلك الأيام الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن الدول التابعة لها .

وقد استقبل الشعب النقراشى باشا استقبالا حافلا حين عاد . ولكن رحم الله شوقى حين وصف مصر بقوله :

نسيت روعتــه فى بلـــد   كل شىء فيه ينسى بعد حين

لم يمض وقت كثير حتى قتل النقراشى باشا بيد غادرة ممن يسمون أنفسهم بالإخوان المسلمين ، وما هم بإخوان وما هم بمسلمين .

وتولى الوزارة إبراهيم باشا عبد الهادى الذى كان يومذاك رئيسا للديوان الملكى ، وكان هذا طبيعيا فقد كان الشخص التالى فى حزب الهيئة السعدية ، ولو أن الملك اختار بدلا منه هيكل باشا رئيس حزب الأحرار

الدستوريين لكان فى هذا شبه موافقة من السراى على قتل النقراشي باشا .
واختير أبى وزيرا للمواصلات فى وزارة إبراهيم باشا عبد الهادى .

وفى لقاء بين هيكل باشا وبين الملك قال له الملك :

ـــ رئاسة الوزارة تنتظرك وستنالها فى يوم من الأيام حتما .

فإذا الأديب العملاق والزعيم العظيم يقول له :

ـــ إنني يا مولاى حين أجلس إلى مكتبى تصغر فى عينى كل وظائف العالم .

استمرت حكومة إبراهيم باشا عبد الهادى إلى أواخر عام ١٩٤٩ ، وكان مجلس النواب بهذا قد أكمل دورته الخامسة . وأعتقد أن هذا المجلس هو المجلس الوحيد فى الحياة النيابية التى بدأت بدستور ١٩٢٣ الذى أكمل فى مقاعده خمس سنوات كاملة تقريبا ، وأصبح لا بد من التفكير فى حل المجلس .

استقال إبراهيم باشا عبد الهادى وظهرت فى الأفق بعض آمال أن تتكون وزارة مؤتلفة من كل الأحزاب ، وتمهيدا لهذا الأمل كلف الملك حسين سرى باشا بتأليف الوزارة من كل الأحزاب . وقبل حزب الوفد أن يشترك فى الوزارة وكان أبى وزيرا فيها ، وفى الإسكندرية راح الوزراء يدعون إخوانهم لموائد الغداء لتأكيد التآلف ، وكان من ضمن أعضاء الوزارة كريم ثابت باشا الذى فرضه الملك فرضا فكان الوزراء يدعونه مع الأعضاء الآخرين على موائدهم ، حتى جاء دور أبى ليدعو الوزراء فوجه إليهم الدعوة للغداء فى بيته بالإسكندرية ولكنه رفض أن يدعو كريم ثابت وكنت أنا موجودا فى هذه الدعوة .

قليلا ما بقيت هذه الوزارة ، وتفجر الائتلاف وهو أمر كان منتظرا طبعا . وألف سرى باشا وزارة من المستقلين كان أوضح ما فيها أنه أشرك معه زوج ابنته الدكتور محمد هاشم باشا ، وأطلق عليه الشعب لقب شيانو مشبها إياه بزوج ابنة موسيليني الذى كان الديكتاتور القتيل يطلق يده فى حكم إيطاليا أيام رئاسته ، وقد قتلهما الشعب معا وعلّق كليهما من أرجلهما فى ميدان عام .

وقد توثقت صلتى بعد ذلك بالمرحوم محمد هاشم باشا ، وأشهد أنه كان كفئا للمنصب الذى تولاه مع حميه بل كان أكبر منه بعلمه وثقافته واتزانه ، وقد نال فى هذه الوزارة لقب الباشوية . وأجرت وزارة سرى باشا الانتخابات ، وقد اكتسح الوفد وكان اكتساحه لسببين أولهما وأهمهما طول بقاء الوزارات المعادية للوفد فى الحكم والشعب المصرى تواق إلى التغيير حتى وإن كان التغيير إلى الأسوأ . ولذلك فإننى أعتقد أن الوفد لم يحافظ على شعبيته إلا لأن الملك كان يقيله دائما ، وكانت هذه الإقالة ترفع أسهمه عند الشعب الذى يقدر أى إنسان يقف فى وجه الحاكم الأعلى . ولو أن الوفد ترك فى الوزارة ليكمل دورة واحدة لفقد شعبيته التى كان يتمتع بها إلى الأبد .

أما السبب الثانى لنجاح الوفد نجاحا باهرا فى هذه الانتخابات فهو شعور رجال الشرطة أن التيار العام مؤيد للوفد ، فأعملوا تزويرهم لحسابه حتى يطالبوا بالمكافآت حين يقتعد الوفد كراسى الوزارة .

ومع ذلك فحين أحصى أهل الإحصاء الأصوات التى نالها حزبا الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية فى هذه الانتخابات ، أوضحت

الإحصاءات أنها كانت تفوق بكثير عدد الأصوات التى نالها الوفد ، مع أن كلا من الحزبين لم ينل إلا حوالى ثلاثين مقعدا فى البرلمان . وهكذا كانت المعارضة ممثلة فى ستين نائبا ونيف من مجموع عدد الأعضاء الذى كان مائتين وخمسين عضوا فى تلك الأيام .

نهج الوفد فى هذه الوزارة نهجا جديدا كل الجدة على سياساته السابقة . والجدة فيه أنه أخذ نفسه بالنفاق الرخيص كل الرخص للملك . وقد بدأ ذلك فى اليوم الذى حلفت فيه الوزارة اليمين برئاسة النحاس باشا إذ قال النحاس للملك فجأة وبدون مقدمات :

ـــ مولاى إن لى عندك رجاء أنا مصمم أن أناله .

ـــ ما هو ؟

ـــ أن أقبِّل يدك .

وبهذه الجملة وهذا الشعار بدأت الوزارة الوفدية الجديدة عهدها الذى نسبت فيه الملك إلى النبى عليه السلام ، والذى قال فى أثنائها النحاس باشا حين سئل عن رأى له فى إحدى المشكلات « إن فى « كابرى » قبلة نتجه إليها جميعا » . وكان الملك يصطاف فى « كابرى » فى تلك الأيام . وأذكر أن روز اليوسف ظهرت فى أحد أعدادها وفى صدرها صورة لحذاء ضخم وكتبت تحته القبلة التى يتجه إليها رئيس الوزراء .

على أية حال ، دخل أبى طبعا هذه المعركة الانتخابية وكنت فى ذلك الحين فى السنة النهائية من كلية الحقوق ، وقد شاركت فى هذه الانتخابات مشاركة جدية ونجح أبى طبعا نجاحا ساحقا . ومن الطرائف

التى لا أنساها أنه طلب منى أن أحضر له من كاتب الحسابات المبالغ التى أنفقها فى المعركة الانتخابية وكانت هذه المبالغ تنفق على الولائم التى كانت يومية طبعا فى بيتنا . وفعلت ما أمر به وأحضرت الحساب وصعدت به إليه فى الطابق الأعلى ، وكان المبلغ أقل من ألف جنيه . فنظر فى الورقة ومزقها ونظر إلىّ قائلا : لا أحب أن يعرف أحد هذا المبلغ . فقلت : طبعا . وأدركت أنه يستكبر أن يعرف الناس أنه ينفق فى الانتخابات هذا المبلغ مع أنه أُنفق كله على مواجهة الزوار . فلم نكن نعرف فى تلك الأيام كلمة الرشوة للأصوات ولا عرفناها فى انتخابات أخى فى انتخابات ٧٦ والحمد لله .

أصبح أبى فى مجلس النواب زعيم المعارضة عن الأحرار الدستوريين ، وكان الأستاذ حامد جودة الذى كان رئيسا للمجلس السابق زعيما للمعارضة عن الهيئة السعدية .

وظل الأمر كذلك حتى حريق القاهرة وانهيار الحياة البرلمانية فى مصر .

* * *

٧

لعن الله السياسة فقد جرفتنى عن الحديث إليك عن نفسى فى تلك الفترة ، وماذا كنت مستطيعا أن أفعل وقد كانت الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض وقد حذرتك من أول هذا الحديث أننى لن أتقيد بالسنوات ولا بالأيام المتتاليات ، وإنما سأترك الأحداث تقدم نفسها إليك فى عفوية وفى غير ترتيب أو تدبير .

مضيت فى دراسة الحقوق غير متعثر ولا متفوق ، وظللت أكتب فى مجلة الثقافة والرسالة معا .

وفى يوم فوجئت بعمى عزيز باشا ــ ولم يكن قد نال الباشوية بعد ــ يطلبنى بالتليفون ويهنئنى على مقالة لى ظهرت فى مجلة الثقافة ، فملأنى الفرح العظيم فقد كان عزيز باشا فى ذلك الحين قد انبثق كالشهاب فى سماء الشعر العربى بديوانه الأول الذى اختص به ذكرى زوجته السيدة زينب هانم أباظة . وقد كانت هذه السيدة من أحب الناس إلى أمى كما كانت أمى من أحب الناس إليها . وكانت صلتنا بأسرة عزيز باشا وثيقة كل التوثق فقد كان عزيز باشا يعتبر أبى أخا أكبر له . ولعل من الطريف أن عمى عزيز هنأ أبى بزواجه بقصيدة أعلقها فى بيتى الآن فالمادح والممدوح كلاهما جد ابنتى وابنى . وربما يكون من المعقول أن أثبت هذه القصيدة فى هذا الحديث الذى أتقدم به إليك فهى على أية حال قصيدة لم تُعرف لآخر

عمالقة الشعر العربى وموضوعها أبى ، وهذا الكتاب يحمل إليك ما لا تعرفه عن حياتى فما بغريب أن أقدم إليك القصيدة التى أنشأها جد أولادى عن جد أولادى فى عام ١٩٢٤ وهو العام الذى تزوج فيه أبى ، وكان عزيز باشا قد تزوج فعلا من السيدة زينب هانم بعد قصة حب رائعة . والذى لا شك فيه أن قليلين الذين يعرفون أنها كانت تكبره بعامين . ولكن صلتنا بأسرة عزيز باشا لم تكن تتمثل فى كثرة التزاور فقد كان فى تلك الفترة مديرا فى مديريات مصر وكان مجيئه إلى القاهرة قليلا .

ومكالمته هذه لى التى حدثتك عنها كانت وهو مدير لأسيوط ، وكانت روايته قيس ولبنى قد ظهرت أيضا فوضعت قدمه بعظمة على المسرح الشعرى . وشاءت الأقدار أن تكون لى به وبأسرته وبرواياته أعمق الصلات وأقواها . طبعا أننى تزوجت ابنته الصغرى فكانت ولا زالت حياتى ، أو هى — والله أعلم — أحب إلىّ من حياتى ، وهى أم ابنتى أمينة وابنى دسوقى ، ولكن حبى إياها زوجةً وشقيقةَ روح وخدن عمر ، أقوى من حبى إياها أما لابنتى وابنى .

إليك القصيدة وقد تلحظ فيها أن عزيز باشا يمتدح زواج الأقارب وما هذا بغريب ، فزوجته زينب هانم بنت عمه سليمان بك عثمان أباظة عضو مجلس الشيوخ ، كما تزوج أبى ابنة عمه عبد الله بك السيد أباظة وقد كان عضوا بمجلس شورى القوانين وهو ابن السيد باشا أباظة والد جدى لوالدى إبراهيم بك أباظة الذى كان عمدة غزالة بلدتنا ، وقد أنجب سيد باشا أربعين ابنا وابنة ، وربما من الطريف هنا أن أذكر أن السيد باشا هذا أهدى الخديوى تفتيشا قدره ١٢ ألف فدان ، مما يدحض قول الجاهلين أن

الخديوى كان يوزع الأرض على الأعيان ، فالحقيقة أن الأعيان هم الذين يهدون الأرض إلى الخديوى .

أما توزيع الأرض من الملوك على الأمراء والإقطاعيين فلم يكن إلا فى فرنسا ، وما عرفته مصر على الإطلاق وما عرفت الإقطاع الذى يهرفون به فى حياتها .

إليك القصيدة :

حىٌّ الغزالى[١] وقل بلغت منزلة — منفوسة فى الشباب المونق الحالى
موفورة الحظ من شأو يقصر عن — إدراكه غيره إلا بآمال
قالوا الشبيبة طرف اللهو محتدما — فقلت بل طرف أخلاق وأعمال
وقفت أنضر أيام الحياة على — درك المحامد فينا والسنا العالى
فنلت فى غير عسر ما نهضت له — والمجد صعب على طلابه غالى
يا صاحب القلم السحرى ترسله — فيبعث الآى فى أسلوبها الحالى
وصاحب الخطبة الفيحاء تنثرها — نثر اللآلئ فى قاعات لآل[٢]
ليهنك اليوم أن تبنى بطاهرة — بين الندى نشأت والنبل والمال
غنى بفضل أبيها الناس قاطبة — ووفقت بعد فى عم وفى خال
زين الغوانى[٣] الأباظيّات قد ظفرت — بالنافع المرتجَى والباذل النال
الساكب العرف والمأمول جانبه — والصائب الرأى والتدبير والقال
إن الزواج لمؤت خير عاقبة — إذا التزاوج لم يخرج عن الآل

(١) الغزالى هو التوقيع الذى كان يمهر به أبى مقالاته السياسية منتسبا إلى بلدتنا غزالة .
(٢) لآل : صانع اللآلئ .
(٣) الغانية : التى تستغنى عن التجميل .

لا تصغ للطب فى هذا وخذ ثمر التجريب تحيا رضى النفس والبال
تحنو علىّ وترعى غيبتى أبدا على الليالى بنات العم والخال
يرضين علمى وجهلى لا يضقن به ذرعا ويحمدن إكثارى وإقلالى
ويغتبطن بإجمالى يشدن به وقد يكون ضئيلا شأن إجمالى
لا زلتما تشهدان العيش متسقا والدهر فى حدب منه وإقبال

توثقت صلتى بعد ذلك بعمى عزيز وكنت كثيرا ما أكلمه فى أسيوط بالتليفون ، وبدأت صلتى أيضا بزوجتى .. صلة من نوع آخر غير صلة القرابة . فأنا طبعا أعرفها منذ وعينا الحياة أنا وهى بحكم القرابة ، ولكن هذه الآصرة الجديدة التى بدأت كانت من ذلك النوع الذى يعرفه تاريخ البشرية ، والتى كانت سببا فى بقاء هذه البشرية على قيد الحياة .

وحبا فى هذه النبضات الجديدة التى بدأ قلبى ينبضها عرضت على عمى عزيز أن أشرف على طبع روايته العباسة . وفى المطبعة قابلت شخصا توثقت صلتى به بعد ذلك ، وكنت حين رأيته أول مرة وكنت أعرفه لأنه كان حينذاك قصاصا مشهورا ، ولم أكن بعد مشهورا ، ولهذا خجلت أن أكلمه فى المطبعة . إنه المرحوم الأخ الحبيب الإنسان الملاك يوسف السباعى . وأصبحت بعد ذلك مسئولا عن طبع روايات عزيز باشا . وقد مُثِّلت روايته العباسة أمام الملك فى ذلك الحين وأحب أن ينعم عليه برتبة الباشوية فى دار الأوبرا ، ولكن النقراشى باشا الذى كان رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية رجا الملك ألا يفعل ، لأن عزيز باشا لم يكن فى ذلك الحين أقدم المديرين ولم يكن أقدم منه إلا شمس الدين عبد الغفار الذى نال الباشوية فيما بعد ، وحين حاول الملك أن يفهم النقراشى باشا

أنه يمنحه الباشوية كشاعر وليس كمدير لأسيوط ، ألح النقراشي باشا فى الرجاء فكان هذا خيرا لعزيز باشا دبرته له السماء ، فقد أقام الملك حفل تكريم خاص لعزيز باشا وجميع الممثلين فى المسرحية والمخرج ولجنة القراءة والإداريين ، وفى هذا الحفل أنعم الملك بالباشوية على عزيز باشا .

من ذكرياتى عن تلك الأيام أن عزيز باشا كلفنى أن أحضر بروفات روايته الناصر فى الفرقة القومية لأصحح اللغة العربية للممثلين ، وكنت حينذاك طالبا بكلية الحقوق ، وهكذا تعرفت بأكبر ممثلى مصر فى هذه المناسبة .

ووهكذا ازددت قربا من عزيز باشا ومن عفاف ، وكنت قد أحسست بوجيب الحب قبل هذا بشهور . وكنا فى الإسكندرية وكنت أختلق الأعذار لأزور بيت عزيز باشا الذى كان بالشاطبى فى ذلك الحين . وكنا وعفاف نتحدث فى الأدب كثيرا مما قوى حجتى أن أحضر لها الروايات التى ظهرت فى المكتبات ، وكنت أقرأ لها شعر شوقى . وفى عفاف خاصية عجيبة — أو ربما لا تكون عجيبة بالنسبة لها — فإنها تحس بأى كسر أو عيب عروضى فى الشعر بأذنها دون أن تدرس العروض طبعا ، فقد تلقت أغلب تعليمها فى مدارس الفرنسيين وهى اللغة التى تجيدها كل الإجادة لدرجة أننى أذكر أننا كنا فى يوم ما أنا وهى فى باريس ووقفنا فى أحد مواقف التاكسيات ، واتصل الحديث بيننا وبين أحد المنتظرين معنا وعرف أننا مسافران إلى مصر فقال لى : أنت تسافر لأنك واضح أنك مصرى ، ولكن لماذا تسافر السيدة ؟ فقد ظن لإتقانها اللغة الفرنسية أنها فرنسية .

فى إحدى زياراتى لمنزل الشاطبى جلست أنا وعفاف ورحت أقرأ لها بعض أبيات لشوقى فى جزئه الرابع ، وفجأة قلت :

ـــ ما رأيك أن أقرأ لك البخت بالشعر .

ـــ طيب .

ـــ أفتح الديوان وأقرأ البيت الذى يقع عليه نظرى دون قصد .

ـــ وهو كذلك .

وفتحت الديوان وقرأت فإذا بختها :

لا بأس علـــيك يا حوريتـــى أنت وأبناؤك حتى يكبروا فى خفرتى

فكأنما كان هذا البيت إيذانا بالزواج .

نجحت فى السنة الثانية فى كلية الحقوق وكان د. شوقى باشا مديرا للجامعة ، وقد تفضل معاليه بأن ينقل إلى أبى درجاتى كلما ظهرت نتيجة علم من العلوم حتى تمت النتيجة كلها ونجحت نجاحا موفقا .

وطبعا كنت قد فاتحت أمى برغبتى فى خطبة عفاف ووجدت عندها ترحابا شديدا ، فأم عفاف رحمها الله ـــ كما قلت لك ـــ كانت من أحب سيدات العائلة إليها إن لم تكن أحبهن ، وعرض الأمر على أبى فرحب هو أيضا . وهكذا خطب أبى عفاف من عمى عزيز ، وقال عمى عزيز :

ـــ وهل أجد لها أحسن من ثروت ؟

فقال أبى :

ـــ أنا طبعا أعرف حبك لثروت ، ولكنى أريد أن أعرف رأيها هى .

ولعلك تعجب أن عفاف قالت لأبيها : أخاف أن يكون فارق العمر بيننا قريبا . وفعلا الفارق بينى وبينها سنتان وبضعة شهور . ربما كان ما قالته هذا

خجلا من أبيها أو ما لا أدرى من مشاعر المرأة التى أعترف حتى اليوم أننى لست خبيرا بدخائلها ، بل وأحسب أنه ليس هناك من هو خبير بشأنها .

وتمت الخطبة وسط أفراح واضحة من خاصة زوجتى ومن خاصتى على السواء . وتم الاتفاق طبعا ألا يكون الزواج إلا بعد أن أحصل على الليسانس .

نجحت من السنة الثالثة إلى الرابعة ، ولا شك أن الخطبة ألهتنى عن المذاكرة التى تكفل لى النجاح فى الليسانس . وتزوجت فى ١١ يونية عام ١٩٥٠ ولم تكن النتيجة قد ظهرت بعد . وفوجئت أننى لم أنجح وأنه لا بد لى أن أؤدى ملحقا فى المرافعات والتجارى . وهكذا بدأت حياتى مع زوجتى وأنا بعد طالب فى كلية الحقوق . ورحت أذاكر فى منزل الزوجية وأنا أشعر بحرج شديد ألا أنجح فتكون فضيحة لى كزوج وهو تلميذ . وشاء الله أن يكتب لى النجاح . وربما من الذكريات التى تستحق أن تقال أننى عرفت نتيجة الليسانس وأنا أتكلم من تليفون فى مطبخ مطعم الكورسال الذى كان مواجها لسينما ديانا فى ذلك الحين . فقد كان يحلو لى أنا وزوجتى أن نتناول غداءنا خارج البيت ونذهب إلى السينما فى حفلة الساعة ٣ . وخطر لى ونحن ننتظر الغداء أن أسأل نسيبنا الدكتور العظيم عثمان خليل عثمان أستاذ القانون العام إن كان عرف شيئا عن نتيجتى ، ولم أتوان وقمت أبحث عن التليفون فى المطعم فإذا هو داخل المطبخ ، فلم أجد بدا من أن أقتحم المطبخ . وبين لغط الطهاة أجابنى الدكتور عثمان خليل وبشرنى أننى أصبحت محاميا ، وبشرت زوجتى . وما دمت ذكرت الدكتور عثمان فلا بد أن أذكر فضله علىّ وموقفه الذى

يدل على منتهى الأمانة مع النفس ومع شرف المهنة .

الدكتور عثمان متزوج من السيدة هدى هانم أباظة ابنة عمى عبد العظيم بك أباظة الذى كان مديرا لحسابات السكة الحديد ، وهو ابن عمة والدى ، فحين دخلت كلية الحقوق رجوت د. عثمان أن أزوره ليشرف على مذاكرتى فرحب بذلك . فكنت أقصد إليه وأنا فى السنة الأولى من كلية الحقوق ويسترجع معى المواد جميعا فهو لم يكن يدرس للسنة الأولى ، وفى السنة الثانية كان هو أستاذنا فى المدرج للقانون الإدارى ، ولم أتوقف عن الذهاب إليه وكنت دائما أتناول عشائى عنده كلما زرته . وفى مرة تمنعت عن العشاء خجلا مدعيا أننى تعشيت ، فألح علىّ قائلا :

— نقنق .

أى كل شيئا بسيطا .

وفى أثناء العشاء نسيت نفسى وأكلت ، فإذا هو يبتسم ويقول لى :

— فى المرات القادمة نقنق فى بيتكم وتعشَّ عندنا .

وضحكنا . ومما أذكر من أفضاله أننى ذهبت بعد ذلك بسنوات إلى الكويت فاستضافنى فى بيته وأكرمنى هو وزوجته كل الإكرام . وقد كان يعمل فى الكويت مستشارا دستوريا للمجلس التشريعى بها .

وقبل أن أروى موقفه الشريف منى يحلو لى أن أروى الموقف الذى ترك من أجله العمل فى الجامعات المصرية . فقد نشأ خلاف بينه — وكان عميدا لكلية الحقوق فى ذلك الحين — وبين الوزير العسكرى الذى كان وزيرا للمعارف ، فقدم د. عثمان استقالته ففرحت زوجته بهذا فرحا عظيما لأنها كانت ترجوه أن يترك الجامعة ويفتح مكتب محاماه حتى

يستطيع أن يواجه المصاريف المتزايدة التى يضطران إليها لكثرة ما أنجبا من بنين وبنات . ولكن الفرحة لم تتم ، ففى اليوم الذى قدم فيه استقالته طلبه مكتب الوزير فى التليفون وأبلغه أن الوزير يريد أن يراه مساء هذا اليوم ولم يستطع طبعا أن يعتذر ، وتوجست زوجته شرا أن يلح عليه الوزير ليسحب استقالته ، فطلبت إلى زوجها أن تذهب معه وتنتظر فى السيارة حتى ينتهى من مقابلة الوزير وفعلت . وصعد إلى مكتب الوزير ومكث قرابة ساعتين ونزل وقد بدا على وجهه الضيق والألم ، وقالت له زوجته :

ــ سحبت الاستقالة ؟

ــ كان الإلحاح أكبر من قدرتى .

فبكت زوجته .

وظهرت الصحف فى الصباح أن الدكتور عثمان خليل عثمان سحب الاستقالة التى كان قدمها .

وفى اليوم التالى ظهرت الصحف وفيها أن وزير المعارف ــ أو التربية والتعليم لا أذكر ماذا كان اسمها فى ذلك الحين ــ أصدر قرارا بإحالة الدكتور عثمان خليل عثمان إلى المعاش .

وهكذا كان عهد الطغاة يأبى للإنسان أن يحتفظ بكرامته ، وإن كان لا بد أن يترك عمله فإنه حتم عليه أن يتركه مفصولا لا مستقيلا .

وعرضت الكويت على د. عثمان العمل بها فقبل .

أما موقفه معى وهو يدرس لى الإدارى فى السنة الثانية فقد كان عظيما وإن كنت أنا الغارم فيه . كنت عنده فى البيت كعادتى وكان بيننا وبين الامتحان ثلاثة أشهر فإذا هو يقول لى :

— حضرتك لا تأتى إلىّ بعد اليوم .

ودهشت :

— لماذا ؟

— سأبدأ فى وضع الامتحان ، فإن بعدت بك عن موضوعات الامتحان ظلمتك ، وإن أشرت إليك إلى أهمية مواضيع الامتحان خنت الأمانة وظلمت نفسى .

هكذا كان الأستاذ العظيم د. عثمان خليل عثمان ، وهكذا كان أساتذة هذا الزمان .أتناول عنده الطعام ويأبى ضميره أن يكون على صلة بتلميذه وقريبه فى الفترة التى يضع فيها الامتحان ، وربما حتم علىّ أن أقول إن الصلة بينى وبين الدكتور لم تقف عند مكان التلميذ من أستاذه ، بل اتخذ منى أخا أصغر يفضى إليه بدخيلة نفسه ويستأمنه على خاصة أسراره التى لا يستأمن عليها أحدا من خاصته . ولكن الصلة الشخصية أمر يختلف كل الاختلاف عن نقاء الضمير وشرف النفس .

حين تخرجت فى الكلية كان همى أن أبحث عن وظيفة وكان أبى قد ترك الوزارة . ولو كان باقيا بها ما فكر أن يعيننى فيها على الإطلاق ، وهل أدل على ذلك مما حدث لى مع أبى ؟ إليك ما حدث :

كان حافظ عفيفى باشا رئيس مجلس إدارة بنك مصر حين تخرجت ، وحافظ عفيفى باشا صديق لأبى منذ ما قبل ثورة ١٩ ، وهو كما لا يعرف الكثيرون طبيب متخصص فى الأطفال . وكنت قد مرضت بعد شهور من ولادتى مرضا كاد يودى بحياتى فقد أصبت بالدوسنتاريا الحادة ، وكان يعالجنى طبيب أجنبى ومعه الدكتور إبراهيم شوقى باشا والدكتور

حافظ عفيفى باشا . وربما تدرك خطورة المرض مما قال الطبيب الأجنبى لوالدتى .. إننى كفوطة على مشجب ، الله وحده يعلم إن كانت تبقى أم تسقط . وتولت عمتى تمريضى فى إصرار حتى كانت لا تنام فى الليل أو النهار . وما أظننى بحاجة أن أقول إننى نجوت من الموت وإلا فما كنت التقيت بك وكتبت لك هذا الحديث الذى أكتب .

أظنك تبينت مدى العلاقة التى تصل بين أبى وبين د. حافظ عفيفى باشا .

كنت مع أبى فى حجرة نومه وكان يحلق ذقنه كعادته ، وأحضرت له التليفون وقلت له :

ـــ ألا تكلم لى د. حافظ باشا عفيفى ليعيننى فى القسم القانونى ببنك مصر ؟

وترك الحلاقة ونظر إلىّ فى دهشة :

ـــ أتنتظر منى أن أرفع سماعة التليفون وأطلب من أحد مهما يكن أمره أن يعين ابنى ؟ هل تتصور هذا ؟

وسكت طبعا ، وعجبت فإننى لم أكن أتصور غير هذا .

كان ثمن هذه الكلمة أربعة وعشرين عاما من عمرى قضيتها بلا وظيفة ، واضطررت فى أثنائها إلى بيع معظم ما تركه أبى لى من أرض حتى أواجه حاجات الحياة الضرورية . فأنا لم أكن يوما لاعب قمار ولا شارب خمر والحمد لله ، ومع ذلك لم يبق لى من أرضى التى ورثتها إلا قدر أخجل أن أذكره ، والحمد لله على ما وهب والحمد لله على ما منع .

كان عزيز باشا قد وعدنى أن يهيئ لى وظيفة فى إحدى شركات

البترول ، وانتظرت الوظيفة دون جدوى . ولولا شغفى بالقراءة وكتابة بعض التمثيليات الإذاعية ، فقد كنت قد بدأت أكتب تمثيليات للإذاعة منذ عام ٤٩ لملأ الفراغ حياتى كلها . ولعل بقائى هكذا فى البيت كان السبب المباشر لكثرة الشجار بيني وبين زوجتى ، ولعل هناك سببا آخر أهم من ذلك . فقد تزوجنا على حب جارف فكان كل منا ينتظر من الآخر ما لا يطيق الآخر أن يقدمه . وربما كانت سننا الباكرة سببا أيضا فى التمسك بتوافه الأمور وصغيرها وتضخيم الأخطاء والمبالغة فى تقويمها . ولا شك أن قلة المال فى يدنا كانت سببا جوهريا آخر على الرغم من أننا لم نكن قد رزقنا بابنتنا وابننا بعد . وقد استمرت هذه الحالة من الشجار حتى علا بنا السن وبلغنا الأربعين تقريبا فاستقر ما كان مضطربا وهدأ ما كان عاصفا .

٨

ظللنا ثلاث سنوات لا ننجب ، حتى إذا كانت السنة الثالثة ظهرت بوادر الحمل ورحنا ننتظر مولودنا بفرح وشغف شاركنا فيهما جميع أهلنا .

وحدث لسوء الحظ أن توفى فى فترة الحمل هذه عم زوجتى المرحوم عثمان بك أباظة الذى كان عضوا بمجلس النواب لفترة طويلة ، وحزنت زوجتى لوفاته حزنا شديدا ، وأغلب الأمر أنها أجهدت نفسها فى المأتم أكثر مما ينبغى لحامل أن تفعل ، وكانت النتيجة القاسية المرة أن مات الجنين قبل أن يولد وكان باقيا على ولادته فترة قليلة .

وأحسبنى فى غنى أن أذكر حزننا لهذا الحادث ، وخاصة أنه جاء بعد وفاة والدى بفترة قليلة .

وفـاة أبـى

فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٢ شعر أبى ببوادر مرض عرفنا جميعا أنه ليس مرضا هينا . وكانت أمينة هانم حرم عمى عزيز باشا تحب أن تحتفل برأس السنة فى الربعماية بلدة عزيز باشا ، وأصرت أن أحضر مع زوجتى هذا الاحتفال . وذهبت فقد كنت أحب أمينة هانم كل الحب وأقدرها أنا

وزوجتى فهى التى تولت شأن زوجتى منذ كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، فكانت لها أكثر حنوا من الأم ولهذا أسمينا ابنتنا أمينة على اسمها .
ذهبت إلى الربعماية ولكننى وجدت نفسى لا يقر لى قرار خوفا على أبى ، فإننى لا أعرف أحدا أحب أباه كما أحببت أنا أبى . ولعلك فى غير حاجة إلى التعرف على هذا الحب الذى يزيده عمقا الإجلال والتقدير والإعجاب بل والإبهار ، فإن ما قرأته فى الصفحات السابقة نبض بكل هذه المعانى .

لم أستطع البقاء فى الربعماية وهمست لزوجتى أننى عائد إلى أبى فى القاهرة ، وأدركت ما يدور بنفسى ولم تعترض . وفى الليل البهيم قدت سيارتى إلى بيتنا فى العباسية ، وحرصت أن أتسلل إلى الحجرة التى كنت أنام فيها قبل زواجى حتى لا أشعر أمى وأبى بالرعب الذى تولانى خوفا على أبى ، ولكنى لم أستطع فى تسللى أن أتخفى عن الخدم الذين أنبأوا أمى وأبى بعودتى ، فاضطررت أن أدخل إلى أبى فى حجرته . ولا شك أن مظاهر الانزعاج كانت بادية علىّ ، ولكننى اختلقت أعذارا واهية لعودتى أحسب أنها لم تجز على السياسى المحنك ولكنه تظاهر بتصديقها .
وتركت بيتى ولحقت بى زوجتى فى اليوم التالى ، وأقمنا ببيت أبى طوال أيام مرضه .

تدهورت حالة أبى الصحية فى سرعة عجيبة فلم يستمر مرضه أكثر من اثنين وعشرين يوما ، وفجعت بموته فجيعة لم أعرف مثيلا لها فى حياتى حتى حين توفيت والدتى ، فقد عانت قبل الوفاة المرض سنوات طوالا ولم يخفف موتها حزنى عليها ، فقد ظلت إلى آخر لحظة من حياتها متنبهة

تشاركنا الحديث بذكائها الحاد . وقد توفيت والدتى فى السبعين من عمرها — أما أبى فقد توفى وهو فى الرابعة والستين من عمره — وكنت فى يوم الوفاة مضطرا أن أذهب إلى المحكمة لأحضر فى قضية غير ذات قيمة ، ولكن شعورى بالمسئولية حتم علىّ أن أرسل القضية إلى الأستاذ إبراهيم أباظة قريبى الذى كنت أتمرن فى مكتبه ليتصرف فيها . وارتاح ضميرى إلى ما فعلت ، وتفرغت بعد ذلك إلى الكارثة التى حاقت بنا . وراح بيت من الشعر يلح علىّ دون أن أستدعيه :

من شاء بعدك فليمت   فعليك كنت أحاذر

وكانت جنازة أبى بالقاهرة من الجنازات الكبرى . ولم تتخلف جريدة ولا تخلف كاتب عن رثائه . وكان طبيعيا أن يكون مثواه الأخير فى غزالة ، وقد أبى أهل غزالة أن يدفن دون جنازة أخرى ، وما أحسب أحدا تخلف عن هذه الجنازة .

وقد أقمنا المأتم لمدة ثلاثة أيام بغزالة ، ومما لا أنساه أن مدنى بك حزين أقام مأتما لأبى ببلدته إسنا وأرسل إلىّ برقية يعتذر فيها عن عدم الحضور إلى غزالة ، لأنه يتلقى العزاء بالسرادق الذى أقامه فى إسنا . وبعد ذلك أقيمت حفلات التأبين لأبى فى جميع بلاد القطر من أسوان إلى الإسكندرية حتى أنى لم أستطع أن أذهب إليها جميعا . ومما لا أنساه موقف الشيخ شعيشع الذى كان أحد القراء الذين رتلوا القرآن فى المأتم ، وحين حاولت أن أقدم إليه مكافأته عن جهده قال :

— إذا كنت تريدنى أن أقبل هذه المكافأة فهات لى يد الباشا لتقدمها إلىّ .

ورفض فى حسم أن ينال مكافأته .

وجاءتنى برقية من الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات بك لا أنساها قال فيها :

« جل خطب عن عزاء ، فلا أقول عزاء ولا أقول صبرا » .

ثم أقام له بعد ذلك رجال حزب الأحرار الدستوريين حفل تأبين ، مع أن الحزب كانت الثورة قد حلته عندما حلت الأحزاب جميعا . ولا أنسى واقعة من عميد الأدب العربى د. طه حسين فى هذه المناسبة ، فقد كنا فى بيت هيكل باشا وهو يعد الإجراءات لحفلة التأبين . وقال هيكل باشا اطلبوا لى طه حسين على التليفون . وكنت بجوار هيكل باشا وهو يكلم طه باشا وقال هيكل باشا :

— يا طه نحن نقيم حفل تأبين لدسوقى فى يوم كذا .

فقال الرجل العظيم وأنا أسمع ما يقول :

— فى هذا اليوم أنا مرتبط بمحاضرة ألقيها . سألغيها وأحضر التأبين وأتكلم .

وقد فعل . وكان المتكلمون جميعا من أعظم رجال مصر . وألقى العقاد قصيدة رائعة نشرتها فى كتابى « ذكريات لا مذكرات » .

لا أريد أنَ أطيل فى هذا الشأن ، فإنه يعيدنى إلى حالة من الحزن والألم والأسى لم تعد سنى تحتملها . ولكن لا أستطيع أن أترك هذا الأمر دون أن أذكر أن هذا الحدث كان فى ٢٢ يناير عام ٥٣ ، أى بعد قيام الثورة ببضعة شهور ، كان لا عمل للإعلام فى أثنائها إلا الهجوم على رجال السياسة وزعماء مصر جميعا بعنف لم تشهد له مصر مثيلا . ولكن الحب الذى كان

يربط هذه الجموع بأبى رحمه الله كان أقوى من كل هذا الهجوم الضارى الشرس الظالم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

عدت إلى الفراغ الذى كنت أعانيه من عملى بالمحاماة ، فقد كان المكتب الذى أعمل به مع المرحوم الأستاذ إبراهيم أباظة قليل القضايا ، ومن شأن المحاماة أن تنكمش فى أيام الحكم الشمولى فكنت أذهب إلى المحكمة مرة فى الأسبوع أو مرتين على الأكثر ويحيط بى الفراغ من كل جانب .

ورحت أبحث عن وظيفة عبثا ، فالوظيفة التى وعدنى بها عمى عزيز تأبت علىّ ولم تظهر لها أى بوادر .

وكان خالى مدحت أباظة يعمل بإحدى شركات النقل فعرض على أن أعمل بها ، وسارعت بالقبول وذهبت إلى الشركة وكان قد تحدد لى مرتب ثلاثون جنيها وقد كان مرتبا عظيما فى تلك الأيام . ومرت الأيام بى فى الوظيفة دون أن أعمل شيئا ، فقد كان المفروض أن أكون محاميا للشركة مع المحامى الرئيسى لها . وأشهد أنه كان من أسفل الناس خلقا ورفض أن يكلفنى بأى عمل خشية منه أن يستغنوا بى عنه . وكم كان تافها فى التفكير فأين محام فى أول حياته مثلى من محام مثله ذى خبرة ودربة ومران . والغريب أنه عين محامية أخرى كلفها بالحضور فى القضايا ولم يكلفنى بقضية واحدة .

ظللت بضعة شهور أتقاضى مرتبى وأنا كاره له غاية الكراهية ، فلم أجد نفسى تقبل مالا بلا عمل ، واستقلت وعدت إلى الفراغ لا تحمينى منه إلا القراءة الجامحة تصاحبها سعادة غامرة وكتابات للإذاعة أو

الصحف والمجلات من الخارج . ووضح وضوحا تاما أن هناك أمرا ألا أنتظم فى العمل بأى جريدة . وكان الصديق الأخ إسماعيل الحبروك أكثر الناس اهتماما بإيجاد عمل لى ، ولكنه كان يجد دائما حائطا خفيا قاسيا يحول بينى وبين التعيين .

فى هذه الفترة تعرفت بالأستاذ فتوح نشاطى لأنى كنت أجلس معه لمدارسة مسرحية الناصر التى كان سيقوم بإخراجها ، وكان عزيز باشا قد سافر إلى أوروبا وكلفنى أن أدارس الرواية مع الأستاذ فتوح وأكون حلقة الوصل بين المؤلف وبين المخرج . وقال لى فتوح إنه معجب بالحوار الذى أكتبه فى تمثيلياتى الإذاعية ، بل والحوار الذى أكتبه فى مقالاتى بالرسالة والثقافة والمصرى . وفكر أن نؤلف مسرحية معا واختار موضوع المعتمد ابن عباد الأندلسى . وتمهيدا لكتابة هذه المسرحية طلب إلىّ الأستاذ فتوح أن أقرأ كتاب دوزى عن تاريخ الأندلس ترجمة الأستاذ كامل الكيلانى . وقرأت الكتاب بمتعة عظيمة ، وكتبت المسرحية مع الأستاذ فتوح ، وطبعا توليت أنا الحوار فيها كلها وكان باللغة العربية المبسطة .

وقدم الأستاذ فتوح المسرحية إلى الأستاذ يوسف وهبى الذى كان مديرا للفرقة القومية فى ذلك الحين . ورفض الأستاذ يوسف المسرحية ولست أدرى حتى اليوم لماذا رفضها ؟ أكان ذلك لأنها تستحق الرفض ، أم كان للخلاف الذى كان بين يوسف وهبى وفتوح نشاطى دخل فى ذلك ؟

كل هذا كان فى حياة أبى . فحين اختاره الله إلى جواره تذكرت كتاب دوزى واخترت شخصية بهرتنى سيرتها . وفكرت أن أتغلب على أحزانى

بكتابة رواية عن هذه الشخصية يكون التاريخ فيها أساسا ، ولكن لا يكون فى نفس الوقت قيدا علىّ .. وهكذا بدأت أكتب رواية ابن عمار ، أنسى به ما واجهته من موت أبى أحب إنسان إلىّ وأعظم مثل أعلى عرفته من الأحياء ، وكذلك موت ابنى قبل أن يولد .

أتممت ابن عمار ولم أجد لروايتى ناشرا خيرا من دار المعارف ، خاصة أن الرواية صغيرة مما يجعلها مناسبة لعدد من سلسلة اقرأ . وذهبت بكتابى إلى الأستاذ عادل الغضبان مستشار النشر بدار المعارف حينذاك والشاعر الرقيق ، وكان يعرف اسمى مما يقرؤه لى فى الرسالة والثقافة والمصرى ، وما يسمعه لى من تمثيليات فى الإذاعة . وقال لى كلمة لم أكن أعرفها ، وكنت قد كتبتها فى سياق الرواية ، فقد استعملت كلمة شراك بمعنى شرك . فقال لى إن الشراك رباط الحذاء وليس بالمعنى الذى تقصده من السياق . وحمدت الله أن عادل الغضبان لم يجد فى كل الرواية إلا كلمة واحدة فى غير مجالها . وقد كان عادل الغضبان من المهتمين كل الاهتمام باللغة العربية وأسرارها .

ونشرت ابن عمار فى عام ٥٤ بعد أن تعاقدت عليها مع دار المعارف ، وكان العقد يقضى أن أتقاضى خمسين جنيها عن كل طبعات الكتاب ، وقد أصبح هذا النوع من العقود باطلا الآن . ولكننى أنا كنت مستعدا للتوقيع حتى ولو لم أنل مليما واحدا عن الكتاب فقد كان أول كتاب لى ، وهذا الذى خالجنى بشأنه أمر طبيعى أن يخالج كل من يحاول المحاولة الأولى .

أرسلت كتابى إلى كل الصحف وإلى كل النقاد سواء من عرفتهم أو لم

أعرفهم ، فلم تظهر عنه كلمة واحدة تشعرنى أنى كتبت شيئا . حتى كان يوم ذهبت فيه كعادتى إلى توفيق بك الحكيم فى بترو بالإسكندرية وقصة تعرّف توفيق بك عليَّ نشرتها فى كتابى « ذكريات لا مذكرات » ولا أرى داعيا لإعادة نشرها .

وجدته يجلس وحده فى بترو فقد كان الوقت مبكرا ولم يكن رفاق الندوة قد تقاطروا عليها بعد ، فما إن جلست حتى بادرنى توفيق بك .

ــ مبروك يا سيدى .

ــ علام ؟

ــ قرروا كتابك ابن عمار على السنة الإعدادية .

فرحة غامرة انسكبت فى نفسى دفعة واحدة وصحت :

ــ صحيح ؟

قال وهو يعطينى جريدة الأخبار :

ــ خذا اقرأ .

وقرأت الخبر . وصمت توفيق بك قليلا ثم قال بعد أن مصمص شفتيه :

ــ شوف ولاد .. يأخذون كتابك ويتركون كتابى !

وتلقيت الكلمة بدهشة كبيرة ، وأين أنا من توفيق الحكيم حتى يقارن نفسه بى .

هذه الفرحة الغامرة نادرا ما شعرت بمثلها فى حياتى كلها . فأنا فى سنى التى أنا عليها الآن أصبحت أكاد أفقد الشعور بالفرح وإن شعرت به يتمشى فى أوصالى فمشية واهنة الخطو هينة الشأن .

وحين عدت إلى القاهرة من المصيف وجدت فى انتظارى خطابا من دار المعارف ومعه شيك قيمته خمسون جنيها ، والخطاب يخبرنى أن هذا المبلغ هدية لى من الدار لتقرير كتابى على الإعدادية وليس حقا لى .

وكان تقرير الكتاب إشارة لى أننى أسير على الطريق ، وأننى أستطيع أن أكتب الرواية . وكانت فكرة روايتى هارب من الأيام قد بدأت تراودنى فبدأت أكتبها على وجل ، وبعد تقرير ابن عمار على الإعدادية لم يكن من العسير أن أجد ناشرا فقد طمع الناشرون أن يقرر كتابى على المدارس فيربحوا هم الربح الوفير .

وجدت ناشرا لروايتى ، وظهرت هارب من الأيام فى عام ٥٧ على ما أذكر . وكانت جائزة الدولة التشجيعية قد أنشئت فى هذا العام فعزمت أن أتقدم بروايتى لهذه الجائزة ، ولكنى كنت حذرا غاية الحذر فرأيت أن أنتظر إلى اللحظة الأخيرة من التقديم لأعرف جميع المتقدمين معى . ووجدت بينهم أسماء على قدر من الشهرة ، ووجدت بينهم من يكبرنى فى السن بمدى طويل ، ولكننى تجرأت وقدمت روايتى . وفوجئت فى يوم بالتليفون يرن فى بيتى وأحد أعضاء اللجنة التى تنظر فى الأعمال يهنئنى بفوزى بالجائزة ، وكانت فرحة غامرة ولا شك . وعرفت بعد ذلك أن الذى هنأنى بنيل الجائزة هو الوحيد الذى كان يعارض منحها لى فى اللجنة ، وحين سئل عن سبب رفضه قال فى بساطة : إن الرواية لم تعجبه ولكن اللجنة أصرت أن يبدى سببا معقولا لهذا الرفض ، فلم يجد العضو بدا من الموافقة على منحى الجائزة . وهكذا نلتها بالإجماع .

وقبل ظهور نتيجة الجائزة بفترة لا أذكرها زارنى أخى الحبيب أمين

يوسف غراب فى البيت وأخبرنى أن الدكتور طه حسين يريد أن يرانى . وأخبرنى أمين أن الدكتور قرأ روايتى وأنه معجب بها . فكدت أطير من الفرح وصحت بأمين : وماذا ننتظر ؟ هلم بنا . وحين دخلت حجرة د. طه وجدت معه الأستاذ عباس خضر رحمه الله وكنت أعرفه معرفة وثيقة . وما هى إلا دقائق حتى قال الدكتور :

ــ لقد قرأت روايتك يا ثروت وأعجبت بها كل الإعجاب .

ــ هذا شرف لم أتصور أننى سأناله يا معالى الباشا .

ــ أنت أديب قلت ما يريد أن يقوله عن طريق الرواية .

ــ الحمد لله .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ الحق أنه لم يكتب فى تاريخ الأدب العربى عن الريف المصرى مثلما كتبت أنت فى روايتك هارب من الأيام .

أصبحت الدنيا فى ناظرى زغاريد وموسيقى وبهجة لم أشعر بها حتى وأنا أتلقى خبر نيلى الجائزة .

وبعد أن جلسنا بعض الوقت استأذنت أنا وأمين ، فإذا الدكتور طه يقول وهو يودعنى :

ــ لا تحسب أننى سأمدحك حين أكتب عنك ، ولكنى سأشد أذنك .

فقلت والفرحة تزيد قلبى خفقا :

ــ مرحبا بكل ما يأتى منك يا معالى الباشا .

وما هى إلا أيام حتى طلبنى محرر من جريدة الجمهورية يريد منى

صورة ليضعها فى المقال الذى كتبه عن روايتى د. طه حسين ، وسارعت بالصورة إلى الجريدة .

ولم أنم فى هذه الليلة حتى الصباح ، وبكرت إلى الجمهورية وقرأت المقال . فوجدت المقالة الكبيرة التى كتبها د. طه ، ووجدته يأخذ علىّ أن فئة تتظاهر بأنها تأخذ من الأغنياء لتعطى الفقراء بينما تستولى هى على الجانب الأكبر مما تستلبه . قال د. طه هذا ليس فى حياتنا وإنما كان أيام صعاليك العرب . أما باقى المقال فكان مديحا لى ما زلت أشعر بالزهو أننى نلته من الأستاذ الذى أعتقد أن الأدب العربى الحديث قد تخرج على يديه .

انتظرت حتى أصبح الوقت مناسبا ، وفى الساعة العاشرة كنت أقف على باب رامتان وهو اسم الفيلا التى يقطنها الدكتور العميد ، وكان جالسا فى مكتبه ، واستقبلنى وهو يقول :

ــ إذن أنت لم تزعل منى ؟

ــ أزعل ؟ بل أسبح فى بحور من السعادة .

وصمت قليلا وقال :

ــ ثروتَ ماذا تقصد بروايتك ؟

ــ لقد قلت لى معاليك إننى قلت ما أريد عن طريق الرواية .

ــ لا شأن لك بما قلت . أخبرنى أنت ماذا تقصد ؟

ــ أرسم عهد الطغيان الذى نعيش فيه .

ــ نعم هذا ما فهمته .

ــ إذا لم تفهمه أنت فكأننى ما كتبت شيئا على الإطلاق .

ـــ ثروت اسمع . أستحلفك برحمة والدك وإنى أعرف مدى حبك وإكبارك له ، وبحياتى وأنا أعرف مكانتى عندك ، ألا تخبر أحدا بهذا الذى تقول ، ولقد قصدت أن أموه فى مقالتى ذاكرا صعاليك العرب وما إلى ذلك ، حتى تقول إذا ما سئلت بصفة رسمية إذا كان طه حسين لم يفهم أننى أهاجم العهد فكيف تفهمون أنتم هذا المعنى ؟ ولهذا كتبت ما كتبت من نقد لك لأتظاهر بأننى لم أفهم المعنى الذى قصدت إليه فى روايتك . يا ثروت نحن نحكم بجماعة ليس لها حدود فى الظلم والطغيان ، والله وحده يعلم ماذا هم صانعون بك إن تبادر إلى ذهن أحدهم المعنى الذى تدور حوله روايتك .

وتأثرت بحديث الدكتور طه كل التأثر . وكنت فى ذلك اليوم مسافرا إلى غزالة لبعض شأنى فما إن وصلت إلى البيت فى البلدة حتى بادرت بكتابة خطاب للدكتور طه أقول فيه ما معناه إنك بما كتبت عنى أثبت اسمى فى سجل الكتّاب ، وهذا أمر ربما كانت الأيام تستطيع أن تصل بى إليه فى قابلها مهما يكن هذا القابل بعيدا ، أما الحديث الذى دار بينى وبين معاليكم فقد وهب لى أبا بعد أن فقدت أبى ، وهذا ما أثق أن الأيام تعجز أن تقدمه إلىّ .

ذهبت إلى الدكتور طه بعد نيلى الجائزة ، فإذا هو يبادرنى قائلا :

ـــ ضحكت على الدولة يا أستاذ .

ـــ مقالة معاليك أهم عندى من الجائزة .

كان مقدار الجائزة خمسمائة جنيه ، ونلت معها أيضا وسام العلوم

والفنون من الطبقة الأولى .

* * *

نلت الجائزة ولكنني ما أزال بلا عمل . وخطر لى أن أذهب إلى عبد الملك بك حمزة فقد كان صديقا لأبى ، بل إن أبى تمرن فى مكتبه حين تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩١٢ . وكان عبد الملك بك رئيسا لمجلس إدارة شركة الملح والصودا . وأحسن عبد الملك بك استقبالى ووعدنى أن يجد لى عملا ، وطلب إلىّ أن أعود إليه بعد أسبوع وفعلت ، ثم أجل موعدى أسبوعا آخر . كان كتاب ابن عمار قد ظهر فى ذلك الحين فأخذت معى نسخة له وأهديتها إليه فتقبلها ، وطلب أن أعود بعد أسبوع آخر ، وذهبت فكان العجب .

ما إن جلست حتى بادرنى عبد الملك بك قائلا :

ـــ أنا لن أعيّنك .

وطبعا سكت والدهشة لا شك قد طفرت إلى عينى .

ـــ أنت عبقرى ، وأنا أرفض أن أدفن عبقريتك فى الوظيفة .

لست أدرى لماذا يظن الناس حتى الكبار منهم وأصحاب التجارب والثقافة أنهم أذكى من كل الناس . وأن الناس كلهم أغبياء إلا هم . لقد واجهت هذه الظاهرة من علماء ومن رجال سياسة كبار ومن فطاحل فى علومهم ومكانتهم الاجتماعية لا يقدرون ذكاء الآخرين ويحسبون أنهم يستطيعون أن يستغفلوا جميع الناس ، والحقيقة أنهم لا يستغفلون إلا أنفسهم .

وبصورة أكثر احتراما واجهت هذا المصير من عبد الخالق حسونة

باشا حين كان أمينا للجامعة العربية . فقد توسط لى عنده عمى عزيز باشا لأعين بجامعة الدول العربية . وبين عبد الخالق باشا وأبى قصة طريفة سأذكرها لطرافتها .

كان أبى وزيرا للشئون الاجتماعية وكان عبد الخالق باشا وكيلا للوزارة ، وكان فى الوزارة موظف حصل على اثنتى عشرة دكتوراه فى القانون ومع ذلك كانت حركة الترقيات تتخطاه دائما ، ولشدة شعوره بالظلم كان يضع على باب الحجرة التى يجلس بها ورقة تحمل اسمه وعناوين الدكتوراهات (إن صح الجمع) التى يحملها .

وشعر أبى بالظلم الفادح الذى يلاقيه فطلب إعداد مذكرة بترقيته إلى الدرجة الخامسة ، وأعدت المذكرة وسارت فى طريقها المرسوم حتى وصلت إلى وكيل الوزارة تمهيدا لعرضها على الوزير . فإذا بعبد الخالق باشا يكتب على المذكرة « لا يرقى » ، وجاءت المذكرة إلى مكتب أبى فإذا به يكتب همزة واحدة فوق لا بسخرية من وكيل الوزارة وليوضح له أن الأمر أولا وأخيرا للوزير وليس للوكيل.وضع أبى همزة على لا وفصله بعدها فأصبح القرار لأ ، يرقى . ورقى الدكتور بقرار وزارى دون حاجة للرجوع إلى الوكيل أو غيره . واستشاط عبد الخالق حسونة باشا لهذه التأشيرة وقدم استقالته ، وكان وكيل الوزارة إذا استقال تعرض استقالته على مجلس الوزراء . ولم يشأ مجلس الوزراء قبول الاستقالة لموضوع ليس من العسير معالجته ، وتصدى عبد المجيد باشا إبراهيم الذى كان وزيرا حينذاك للموضوع وطلب إلى مجلس الوزراء إرجاء النظر فى الاستقالة حتى يبذل هو مساعيه بين أبى وبين عبد الخالق باشا . وفعلا دعا أبى والوكيل إلى

الغداء فى بيته . وبدأ عبد الخالق باشا العتاب وكان رجلا فى غاية الأدب والكياسة وحسن التأتى وكان دائما يقول كلمة مونشير لمحدثه وهى كلمة فرنسية تعنى يا عزيزى . قال لأبى :

ـــ يا مونشير تكتب على تأشيرتى لأ ، يرقى .

فقال أبى :

ـــ وأنت تتمنع عن ترقية موظف تعلم أننى أمرت بترقيته .

ـ يا مونشير إنه لا يفهم شيئا .

ـــ يا عبد الخالق بك أنت وكيل وزارة وأنا وزير وكل منا لا يحمل إلا ليسانس الحقوق ، أكثير أن أرقى موظفا يحمل ١٢ دكتوراه إلى الدرجة الخامسة ؟

ـــ إنه ليس كفئا .

ـــ وهل رقيته إلى مدير عام ؟ إنها مجرد الدرجة الخامسة .

ـــ بردون يا مونشير .

وانتهى الأمر وأصبح أبى من أحب الناس إلى عبد الخالق حسونة باشا ، كما أصبح عبد الخالق باشا من أحب الناس إلى أبى . وسحب الاستقالة وظل هو وأبى صديقين حميمين طوال الفترة التى قضاها أبى فى وزارة الشئون ، وامتدت الصداقة بينهما بعد ذلك لم تنقطع .

وعودا على بدء حين ذهب عزيز باشا إلى حسونة باشا يرجوه أن أعين بالجامعة وقال له :

ـــ إن لم يكن من أجلى أنا فمن أجل والده الذى أعرف أنه كان صديقا أثيرا لك .

وكنت فى ذلك الحين قد أصبت نصيبا من الشهرة ، فقال حسونة باشا فى أدبه الجم :

ـــ يا مونشير ثروت أباظة لا يحتاج أن يستند إليك ولا إلى والده ، فهو نفسه مكسب للجامعة وجدير بكل احترام .

ومع ذلك لم يستطع حسونة باشا أن يجد لى مكانا فى الجامعة ، وعلمت بعد ذلك ممن لا أستطيع أن أذكر اسمه إنجازا لوعد قطعته على نفسى ، أن الدولة منعت حسونة باشا أن يعيننى فعجز الرجل مع كل النيات الطيبة نحوى أن يعيننى بالجامعة .

وهكذا كنت أقبل أى عمل يعرض على حتى لا تتسع أمامى هوة الفراغ ، ومن بين الأعمال التى قبلتها على كره شديد وظيفة رئيس تحرير مجلة الإعلان . وقبل أن أمارس عملى حدث لى أمر جدير بالرواية .. كنت فى منزلى ونزلت إلى سيارتى وجلست فى مقعد القيادة ، وإذا برجل لا أعرفه يفتح الباب الخلفى فى سرعة ويدخل إلى السيارة ويبدأ بحديث عجيب : أنت فلان بن فلان ؟ وفى لحظات روى لى كل صغيرة وكبيرة فى حياتى ثم قال :

ـــ شكرا . أنا مكلف من المخابرات بعمل تحريات عنك لأنك ستصبح رئيس تحرير مجلة الإعلان ، وأنا أعلم أنه ليس فى تاريخك ما يستحق البحث وراءه ، فقلت أسألك بدلا من اللف والدوران . أرجوك ألا تخبر أحدا بهذا الذى صنعته معك وإلا اعتقلت وشردت وخرب بيتى . سلام عليكم .

ونزل من السيارة .

وقد نلت جائزة الدولة التشجيعية وأنا رئيس لتحرير مجلة الإعلان بالنون وليس بالميم . وصدر مرسوم وسام العلوم والفنون باسمى يحمل هذه الصفة فى صلبه ، دليلا على حقارة العهد الذى كنا نعيش فيه وطغيانه وتخبطه وصغاره .

بعد هذا طلب منى عمى فكرى باشا أن أعمل بدار الهلال ، وطلب إلىّ أن أنقل اسمى من جدول نقابة المحامين وأقيد نفسى فى نقابة الصحفيين . ووافقت فقد كنت ضقت ذرعا بالمحاماة ، ووضح لى تماما أننى لن أصلح مفاوضا مع الموكلين وإن كنت أصيب كثيرا من التوفيق فى ساحة القضاء ، حتى كان بعض المستشارين إذا وقفت أمامهم فى مرافعة يتهامسون أنهم سيسمعون كلاما رائعا ، وقد أتيح لى أن أسمع هذا الهمس لأن حاسة السمع عندى قوية إلى حد بعيد وراثة عن أبى رحمه الله . ولكن حدث لى مع الموكلين حادثتان جعلتانى أعزف عن المحاماة كل العزوف وأرحب بنقل اسمى إلى جدول غير المشتغلين فى نقابة المحامين وإثبات اسمى بجدول المشتغلين بنقابة الصحفيين ، وكان ذلك فى عام ٥٨ .

وقبل أن أقص هاتين الواقعتين يطيب لى أن أروى موقفى فى المحكمة فى أول مرة . كنت فى ذلك الحين أتمرن فى مكتب ابن عمنا الأستاذ محمد عبد الرحمن أباظة وذهبت أحضر عنه فى قضية بمحكمة عابدين ، وقد تفضل الأستاذ محمد عبد الرحمن فصحبنى إلى المحكمة ، وكان كل المطلوب منى أن أقوله لهيئة المحكمة .

« حاضر عن فلان ، وأرجو التأجيل لحين حضور المحامى الأصلى ».

وإذا عرفت أننى كنت أخطب فى الناس مواجهة وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى ، أى قبل يومى هذا بعشر سنوات وأحدثهم فى الميكرفون قبل وقفتى هذه بالمحكمة بسنوات ، لأدركت كم كان ينبغى لى أن أكون هادئا وأنا أقول أرجو التأجيل لحين حضور المحامى الأصلى . ويزيد دواعى هدوئى أن المحامى الأصلى معى بالقاعة وعلى استعداد لإنقاذى فى أى لحظة . ولكننى مع ذلك شعرت برهبة متفاقمة مزلزلة وأنا أقف لأول مرة فى ساحة القضاء المقدسة . وقد لقيت بعد ذلك فى حياتى من لقيت رؤساء لأعظم دول العالم كما لقيت ملوكا وأمراء فلم أشعر فى أى لحظة فى كل هذه المقابلات بأى رهبة ولا مر بى أى شعور من خوف مهما يكن ضئيلا ، فما خشيت بعد الله إنسانا فى حياتى قط إلا أبى .

ولكننى مع ذلك ما زلت أذكر رهبتى وأنا أقف فى المحكمة لأقول هذه الكلمات القلائل . بل ما أحسبنى مبالغا إذا قلت إن الرهبة تعود إلى قلبى كلما ذكرت هذا الموقف .

ولنعد الآن إلى الواقعتين :

وأعتقد أنهما جديرتان بالقص ، فإحداهما أن قصد إلىّ أحد الموكلين يطلب منى أن أتولى قضية له فى مصلحة الضرائب ، وكان مدير عام مصلحة الضرائب فى ذلك الحين ابن عمتى المرحوم محمد كامل أباظة الذى كنت أعتبره أخا أكبر لى ، فحين جاءنى هذا الموكل أدركت ما بعث به إلىّ . قلت له :

ــ لماذا جئتنى ؟

ــ لأنك محام شهير وعظيم ، وأنا مستعد أن أدفع لك أربعمائة جنيه

أتعابا فى هذه القضية .

ولعل أبناءنا من جيل هذه الأيام لا يدرك ضخامة هذا المبلغ وفخامته ، ولكن الذى لا شك فيه أن أبناء جيلى والذين يصغروننى ببضع سنوات يدركون معنى هذا الرقم وقوته أن يكون أتعابا .

وسعيت فى القضية ووفقت فيها ولم أتقاض أية أتعاب .

أما الحادثة الأخرى فكانت حين جاءنى موكل أعرف أسرته لأترافع عن أخيه المتهم بالاشتراك فى قتل سيدة عجوز ابنها ضابط بالجيش ، وكان القتل بقصد السرقة . وكانت أسرة المتهم على صلة ببيتنا فقد كنا نبرهم . وكانت القضية شهيرة وقد كان كثير من المحامين على استعداد أن يدفعوا أموالا لأقارب المتهم ليترافعوا فى هذه القضية . وكان المحامون عن المتهمين الآخرين أحمد بك رشدى — واحد من أعظم المحامين فى عصره — وعلى بك أيوب الوزير السابق والمحامى العملاق . وكان مجرد وقوفى إلى جانب هذين الاسمين الجليلين أمرا من شأنه أن يجلب لى شهرة واسعة فى دنيا المحاماة .

وعدت أطلع على الدوسيه . واطلعت وجاء أخو المتهم فقلت له :

— هل ارتكب أخوك الجريمة ؟

فأطرق وقال :

— نعم .

قلت :

— لقد قضى أخوك بعض الوقت فى مستشفى الأمراض العصبية وهذا يتيح لى أن أطلب التخفيف وليس البراءة ، فإن قبلت أنا تحت

أمرك ، وإلا فاذهب إلى محام آخر فنحن أقسمنا ألا نقول إلا الحق ولا أستطيع أن أحنث بقسمى ، وطبعا لم يعد . وقد تتبعت هذه القضية فى الصحف وكانت قضية ذات شهرة أسمتها الصحف قضية أم الضابط . وقد تخلى عن القضية كل من أحمد رشدى وعلى أيوب وتولاها محام ذو شهرة واسعة حتى الآن ، واستطاع بفضل ألمعيته أن يحصل للمتهمين الأربعة على الإعدام . ولعله من الطريف أن أذكر تعقيبا على هذه الواقعة حدث بينى وبين كبير المحامين فى عصرنا مصطفى بك مرعى الوزير السابق ، فقد رويت له هذه الواقعة فذكر لى قاعدة لم أكن أعرفها ، قال لى :

— إن المحامى لا يسأل الموكل إن كان ارتكب الجرم أم لا ولا شأن له إلا بالأوراق التى أمامه ، هى التى تكلمه وهكذا يتخلص كبار المحامين من تأنيب الضمير .

وهكذا وجدت نفسى لا أصلح محاميا على أية حال .

وذهبت إلى عمى فكرى باشا ، وقابلت إميل زيدان وتم تعيينى فى دار الهلال فلم أمكث محررا بالمصور إلا نصف ساعة ، ولم تكن الصحف قد أممت بعد طبعا . والذى حدث أننى أعطيت مقالة لرئيس القسم الذى سأعمل معه ، فوجدته يبدى ملاحظات تدل على أنه لا صلة له مطلقا لا بالأدب ولا بالصحافة . وأدركت أننى كل يوم سأظل رائحا جائيا بين مكتبى ومكتب عمى فكرى باشا لأكلمه فى الخلافات التى لا شك ستقع بينى وبين رئيس القسم الذى أعمل معه . والتردد على رئيس التحرير إذا جاز لكل المحررين والكتاب ، فإنه لا يجوز لشخص هو بمثابة

ابن أخى رئيس التحرير .

فخرجت من دار الهلال إلى لا عودة ، وإن ظللت أمدها بقصصى القصيرة من الخارج .

وطبعا بعد أن أممت الصحافة أصبح تعيينى أمرا مستحيلا ، ولكننى ظللت أكتب من الخارج ، وكان من أعظم من أتاح لى فرصة الكتابة أخى وصديقى فتحى غانم فقد أفسح لى صفحة أسبوعية فى الجمهورية كتبت فيها مقالا عن الشيوعيين بعنوان « من خلال مجهر » صدرت بعدها الأوامر إلى فتحى غانم ألا أكتب عنده مطلقا ، وقد أبى الرجل العظيم أن ينفذ الأمر وطلب إلىّ أن أكتب فى غير السياسة وكانت هذه منه جرأة فائقة تمثلت فى هذه الشخصية الفذة ، وتكرر منه هذا الموقف الجرىء المشرف حين نشر لى روايتى « شىء من الخوف » فى صباح الخير حين كان رئيسا لمجلس إدارة روز اليوسف ، وكنت قد أعطيته الرواية وقال لى إذا جاءنى مقال من طه حسين فإنى أدفع به إلى المطبعة مباشرة دون أن أقرأه ، وكذلك الأمر إذا جاءتنى رواية من ثروت أباظة فإنى أدفع بها إلى المطبعة مباشرة . وقذفت بى هذه الكلمة إلى حيرة شديدة وإشفاق على الرجل العظيم فتحى أن ينشر الرواية ويفصل من عمله إذا لم يعتقل ، وأيد حيرتى أستاذى وصديق عمرى نجيب محفوظ الذى قال لى : لا بد أن تجعله يقرأ الرواية بأية طريقة . وطلبت فتحى غانم وقلت له أنا لا أريد مجرد نشر الرواية ، وإنما يهمنى أكثر من نشرها أن أعرف رأى الروائى الكبير فتحى غانم . وقرأ الرجل العظيم الرواية وقال لى : إنك لأول مرة تكوّن من وحدات شكلا متكاملا كالزخرفة العربية التى تكون فيها

الأجزاء شكلا متكاملا ، وكأنما ليس بالرواية رمز . ونشر الكاتب الجرىء الرواية فى رجولة يندر أن يعرفها هذا الزمان .

أصبح التفكير فى عمل صحفى بعد التأميم أمرا يعتبر نوعا من العبط الذى لا مثيل له . فاكتفيا بالكتابة غير المنتظمة فى الصحف وبكتابة رواياتى والحمد لله على ما وهب ، والحمد لله على ما سلب ، وله الشكر على الحالين .

* * *

نسيت فى غمرة الحديث عن حياتى العامة أن أذكر لك حياتى الخاصة ، فقد رزقت فى هذه الفترة بابنتى أمينة فى أكتوبر عام ٥٥، وقد ولدت فى يوم المولد النبوى فى ذلك العام وولدت يوم الجمعة ساعة الأذان ، وقد حصلَتْ على ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية وعملت قليلا بأجر خيالى فى المصرف العربى الدولى ، ثم وجدت نفسها غير صالحة للتعامل مع المال مهما يكن الأجر فلكيا شأنها فى ذلك شأن أبيها واستقالت ، وهى تعمل الآن بعقد فى التليفزيون ورفضت التعيين به حتى لا تمسك الوظيفة بتلابيبها ، وهى قارئة فى الفرنسية والعربية شديدة النهم فى القراءة ، وقد ترجمت لى رواية « شىء من الخوف » ، ونشرت الترجمة ، والحب بينى وبينها من نوع عظيم فأنا أحب فيها خلقها الرقيق شديد الرقة ، ورهافة الحس ونقاء السريرة إلى درجة لا أجد لها مثيلا فى كل من عرفت فى حياتى ، وبصورة تجعلنى دائما أشفق عليها ، فطيبتها وحرصها على معونة الإنسان والحيوان ما يجعلانها فى حالة شبه روحانية دائمة لا يرتاح صاحبها أبدا . وكيف له أن يرتاح وقد جعل هموم العالم جميعها من

بشر وحيوان همومه هو الشخصية ؟ أسأل الله أن يهب لها من الخير والتوفيق قدر ما تهب هى لمخلوقاته جميعا .

ورزقتُ فى يناير ٥٨ بابنى دسوقى ، وقد نال ليسانس الحقوق وعمل بالنيابة ثم القضاء ، واليوم وأنا أكتب هذا الحديث تفضل الدكتور عصمت عبد المجيد فأصدر قرار تعيينه بالجامعة العربية .

وقد تعلم دسوقى فى المدارس الفرنسية فهو يجيد الفرنسية إجادة تامة ، وهو كثير القراءة فى العربية والفرنسية على السواء . ولعله من الطريف أن أروى كيف دخل كلية الحقوق ، فهو حين حصل على الثانوية العامة كان مجموعه لا بأس به وقال لى إنه يريد أن يدخل كلية الآداب قسم الفلسفة ، فقد كان كثير القراءة فى كتب الفلسفة مما جعله يتعلق بها . فقلت له : افعل ما تريد ، وكل ما أرجوه منك أن تتحدث فى هذا الأمر مع عمك نجيب محفوظ فهو خريج آداب فلسفة أيضا . فقال : وهو كذلك . وكنا فى الإسكندرية ، وكنت أجلس مع نجيب بك فى كازينو جليم وكان كل منا يتحرى أن يذهب مبكرا إلى الكازينو ليتاح لنا جلسة خاصة نتبادل فيها خاصة شأنينا قبل أن يأتى الأصدقاء الآخرون . وصحبت دسوقى إلى هذه الجلسة وقال لنجيب :

— أريد أن أدخل كلية الآداب قسم فلسفة .

وقال نجيب بك :

— عظيم ! ولكن هناك شرط .

— ما هو ؟

— أن تكون أول دفعتك .

واندهش دسوقى وقال :

ــ وكيف أضمن هذا ؟

ــ إنك تدخل إلى قسم الفلسفة لأنك تهوى الفلسفة ، فإذا لم تكن الأول وتعين معيدا بالكلية لتظل وثيق الصلة بهوايتك ، فسينتهى بك الأمر أن تعمل موظفا فى الجمعية التعاونية . وطبعا اقتنع دسوقى ودخل إلى كلية الحقوق وكان متقدما فى دراسته ، وحين تخرج ظل سنة تلميذا فى معهد الدراسات القانونية الذى لا بد أن ينتسب إليه الآن كل من يصدر القرار بتعيينه فى النيابة . وكان حظ دسوقى أن كان الأول على دفعته لإتقانه للفرنسية ، مما أتاح له السفر فى بعثة ستة شهور للدراسة فى فرنسا . ثم عاد وعمل أستاذا للغة الفرنسية بعض الوقت فى نفس المعهد ، ثم تدرج فى النيابة حتى جلس على كرسى القضاء . وحين يظهر هذا الكتاب سيكون إن شاء الله قد مرت عليه فترة يعمل فيها بجامعة الدول العربية .

ودسوقى ــ بحمد الله ــ على أحسن صلة بربه ويقوم عنى بالإشراف على زراعتنا ، فهو متعلق ببلدتنا غزالة كل التعلق . ومن نعم الله علينا أنه شاب جاد غير هازل وإن كان هذا يجعله قريب الغضب ، ولكنه أيضا قريب الرضا .

وقد تزوج دسوقى من ابنة الأستاذ منير حتاتة المحامى ووهب لنا : ياسمين وهى فى الرابعة من عمرها ، وعفاف على اسم جدتها ــ زوجتى ــ وهى فى الثانية من عمرها . والحفيدتان هما مصدر سعادتى التى لا أشعر بمثيل لها فى أى منحى من مناحى الحياة إلا فى لعبهما

حولى .

* * *

فى هذه الفترة شهدنا حربين ، أما الحرب الثالثة فلها حديث خاص بها . صباح تأميم القنال كنت فى الإسكندرية وذهبت إلى بترو كشأنى فى كل صباح ، فقد كنت متعودا أن أجلس فى ندوة الحكيم حتى الساعة الثانية عشرة ثم أذهب إلى نادى السيارات وأستحم فى مسبحه . وذهبت إلى توفيق الحكيم وكان وحده وكان متحمسا كل التحمس للتأميم ، فعارضته معارضة شديدة متوقعا حربا ضروسا لا قبل لنا بها ، وذكرت له أن هذه مسرحية ستدفع مصر وشعبها لها ثمنا غاليا فى مقابل لا شىء ، فالقناة ستعود إلينا بعد سنوات قلائل ليس لها قيمة فى عمر الشعوب .

وقال توفيق بك:أنت تكره العهد ، ولكن الإنسان فى المناسبات الوطنية الكبرى ينسى كراهيته ولا يذكر إلا وطنه . واحتدم الخلاف ، وكنت طبعا لا أستطيع أن أعنف به ففارق السن له فى نفسى نوع من التقديس . فصمت قليلا وبدأ أهل الندوة يتقاطرون ، فقمت مزمعا ألا أعود وقد فعلت .

ومر يومان أو ثلاثة وإذا بالتليفون يطلبنى فى نادى السيارات ، وإذا بى أجد توفيق بك على الطرف الآخر يعتذر لى ويرجونى أن أعود إلى الندوة ، وكان رقيقا رقة زائدة . فغفرت له ما كان بيننا من نقاش عنيف ، وعدت إلى الندوة فإذا الغالبية فيها من رأيى .

وفى أكتوبر حدث عدوان ٥٦ وكان الدمار الماحق إلى جانب الأرواح والأموال الطائلة التى فقدناها مع مهانة لمصر لا مثيل لها ،

وكانت خطبة رئيس الجمهورية فى الأزهر تدل على الانهيار الكامل الذى دب فى كيان عهده ، ومع إصراره على القتال فقد كان واضحا أنه فى حالة ثورة عارمة ، وما دام هو ثائرا فلتذهب الأرواح والبنايات وكرامة الوطن إلى الجحيم .

وفى أثناء العدوان كنت ألتقى بتوفيق بك وقال لى يوما :

ــ كم كنت أنت محقا وأنا كنت أعارضك ، وكم كنت مخطئا فى رأيى .

وسكت طبعا ولم أعلق .

ولولا أن أمريكا بخلق رعاة البقر غضبت لأن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل أشعلت نيران الحرب دون إذن منها مما جعلها توجه إلى الدول الثلاث إنذارها الشهير ، لكان الخراب الكامل لمصر .وكان الإعلام المصرى فى هذه الحرب قد بلغ حضيضا لم يستطع أن يسفل عنه إلا فى حرب ٦٧ .

وفجرت الأغانى المصرية لتجعل من هذه المهانة نصرا ، فكنا بين شعوب العالم سخرية وأضحوكة لم يعرف العالم لها مثيلا إلا بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاما على يد صدام حسين فى حرب الخليج .

* * *

ومرت السنوات وأقفل رئيس الجمهورية الطاغية شرم الشيخ ، وما حدث بينى وبين توفيق الحكيم حدث بينى وبين أخى الأكبر وتوأم روحى عبد الرحمن الشرقاوى حين رأى هو فى هذا العمل بطولة ورأيت فيه خرابا . وقد جرى الحوار بيننا فى مكتبه بمؤسسة السينما بشارع سليمان باشا ، واحتدم بيننا النقاش وتركته على نوع هين من المغاضبة ورغم حبى له نويت ألا أتصل به فى هذه الفترة حتى لا تتسع هوة

الخلاف . ونشبت الحرب وما كانت حربا وإنما ما عهدتم من سحق كامل لجيوشنا وأرواح أبنائنا وأموالنا فى مدن القنال .

وكنت طوال أيام الحرب فى بيتى أتتبع الأنباء من محطات العالم كلها إلا مصر ، فلم تكن مصر تذيع إلا الأكاذيب .

وفى يوم اضطررت أن أذهب إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب لأستخلص بعض مستحقات لى ، فقد كان السفر إلى البلد مستحيلا ونفد المال من بيتى تماما . وبعد أن حصلت على هذه المستحقات هممت بمغادرة المجلس . وبينما أنا فى ممشاه سمعت اسمى على ألسنة السعاة يلهثون خلفى . وقفت وأبلغنى المنادون أن يوسف بك السباعى يريدنى فى حجرته ، فصعدت إليه فإذا هو يقول لى :

— الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة يريدك .

— يريدنى أنا ؟

— نعم .

— خيرا ؟

— والله لا أدرى . كلمنى وقال إنه يريدنى ويريدك معى .

— متى ؟

— الآن .

— لا بأس .. نذهب .

— هل معك سيارة ؟

— نعم .

— إذن أذهب معك .

— أهلا وسهلا .

وركبنا سيارتى هذه المسافة القصيرة بين المجلس الأعلى للثقافة وبين قصر عائشة فهمى حيث كان مقر وزير الثقافة . ولم نكد نتحدث أنا ويوسف بك فقد كان واضحا أن الألم يعتصر نفوس المصريين كلهم ، وكنت أضرب أخماسا فى أسداس حائرا فيما يتخفى وراء هذا الطلب ، أأكون قلت شيئا يدل على غضبى ؟ ولكننى لا أخرج من بيتى . أنا أعيش بين إذاعات العالم منذ باكر الصباح إلى أن يتوقف الإرسال . لم تطل حيرتى فسرعان ما وصلنا .

وحين دخلت مقر الوزير هدأ طائرى . لم أكن أنا ويوسف بك وحدنا المدعوين بل كان هناك ما يقرب من عشرين كاتبا وصحفيا من بينهم عبد الرحمن الشرقاوى الذى صالحته طبعا . كنا جميعا تحت وطأة شعور بالسخط والتشوف والتوقع ، ويغلف هذا جميعا ألم يعتصر النفوس .

وجلسنا على كراسى كانت معدة وأمامها منضدة ، ووراء المنضدة باب يفتح من الجانبين . ولم يطل بنا الانتظار وفتح الباب المواجه لنا وخرج الوزير وراح ينظر إلى كل الحاضرين فردا فردا ، فإن كان يعرفه ذكر اسمه ، وإن لم يكن استبان منه الاسم فيذكره له صاحبه .

ثم بدأ الوزير الحديث ، وعرَّفنا رسميا أن الجيش المصرى قد انسحب ، وقال الوزير إن الانسحاب لا يعنى الهزيمة وإنما هو لون من ألوان القتال لا يدل على الهزيمة . وعرفنا من الوزير أيضا أن الطيران المصرى كله قد دمر ، ولكنه قال ولكننى أؤكد لكم تأكيد مثقف لمثقفين أن روسيا سترسل لنا طائرات أخرى إن لم تكن قد وصلت فعلا فهى فى طريقها إلى

الوصول فى أقرب وقت . وتحدث الحاضرون ، وأذكر أننى قلت إننى أطالب الإعلام المصرى أن يذكر لنا الحقائق حتى نكون على بينة من أمورنا ، فإن الذى تطالعنا به الإذاعات الأجنبية مروع وفظيع ، ويبدو أننى تكلمت بلهجة حادة فراح الوزير فى وداعة يهدئ من روعى بكلمات رقيقة .

خرجنا من الاجتماع وصحبنى عبد الرحمن الشرقاوى ونجيب محفوظ لأذهب بهما إلى منزليهما ، وفى الطريق كان أستاذنا نجيب مروعا حزينا وكذلك كان عبد الرحمن الشرقاوى ، ولو أنه كان يكتب مقالا يوميا فى تحية الجيش . وقد أثارنى منه قوله فى إحدى مقالاته : إنه لا يجوز أن يتكلم الشعب عن الخطط العسكرية لأنه لا يفهم شيئا فى هذا المضمار . ولكنى لم أشأ أن أحدثه فى شأن هذه المقالة ونحن فى السيارة ، فقد كان ثلاثتنا فى حال لا تسمح بمزيد من الجدل . وأذكر مما قاله عبد الرحمن الشرقاوى فى السيارة :

— أليس من المحتمل أننا نسحب الجيش الإسرائيلى لنطوقه فى عملية كماشة ؟

فقلت له :

— وهل كنا ذاهبين إلى فلسطين لنحررها من اليهود ، أم لنطوق جيشها فى كماشة ؟

فقال نجيب محفوظ :

— لك حق .

وقال الشرقاوى :

ـــ والله الواحد أصبح لا يعرف شيئا .

وفى المساء فى نفس هذا اليوم أعلن مندوبنا فى هيئة الأمم استسلام مصر الكامل ، وكانت للإذاعة قناة متصلة بهيئة الأمم تعمل طوال فترة الاجتماع التى تعمل فيها الهيئة ، ومع توقعى لهذا توقعا لا جدال فيه وجدت نفسى أنخرط فى نشيج عال من البكاء ، وراحت زوجتى أعزها الله تخفف عنى غير واجدة من الكلمات ما تقوله إلا أنه ربما كانوا مخطئين . ربما يقول شيئا آخر .

وأحسب أننى ما زلت أبكى حتى اليوم على الرغم من الانتصار الخالد الذى حققه الجيش بقيادة السادات ومعاونة حسنى مبارك . وبعد أيام طلبت عبد الرحمن الشرقاوى فى التليفون وقلت له :

ـــ أنا لن أعاتبك على مقالاتك إلا على مقالة واحدة نهيت فيها الشعب أن يتكلم فى وقائع الحرب . أهذا معقول ؟

وفى لهجة من كان ينتظر المكالمة قال لى :

ـــ أتأتى إلىّ أم أجىء إليك ؟

ـــ تعال .

وبعد لحظات كان عندى فى البيت وبدأ كلامه :

ـــ أولا أعتذر إليك لاختلاف رأيى عن رأيك ، فقد كنت أنت على صواب منذ الوهلة الأولى .

ولم أجد شيئا أقوله ، وعاد نهير الأخوة الصافى بيننا إلى جدوله لا يرنق صفاءه شىء .

* * *

أحسب أن الأيام سارت بى سيرا رتيبا بعد حرب أكتوبر ، وأحسب أننى فى غير حاجة أن أقص أنباء رواياتى التى كتبتها ، فكل هذا ظهر فى أحاديث إذاعية وتليفزيونية ومقالات ، وبعضها ذكرته فى كتب .

بعد حرب ٦٧ انتقلنا إلى المعادى لنقيم مع عمى عزيز باشا والسيدة الفاضلة زوجته أمينة هانم فى محاولة منا لضغط المصروفات كما يقول الاقتصاديون . وأجرت شقتى بالزمالك مفروشة ، وكان ما نناله منها يواجه حاجاتنا الضرورية ، ثم كان اعتمادى بعد ذلك فى مواجهة مصاريف الأولاد والملبس وبنزين السيارة على بيع أرضى وما كنت أتقاضاه من مكافآت من مقالاتى وقصصى ، ما ينشر منها فى الصحف أو ما يذاع من رواياتى أو ما يؤخذ منها للسينما أو للتليفزيون . وفى هذه الفترة كان هناك وفد رسمى إلى العراق اشتركت فيه ، وكان معى فيه المرحوم صالح جودت وأخى الحبيب أنيس منصور أطال الله عمره . واتفقنا ثلاثتنا أن نذهب معا فى سيارة إلى الكويت لنزور بها بعض الأصدقاء ، وقد كانت المرة الأولى التى أزور فيها العراق أو الكويت ، وكان معنا فى العراق أيضا أخونا الشرقاوى وقد كان الاستقبال لأشخاصنا فى العراق رائعا ، فقد قصد إلينا الصحفيون والإذاعيون وكنا موضع تقدير لا شك فيه . أما الهجوم على مصر فكان فى كل خطب المهرجان وقصائده ، لقد كنا السخرية والنقد الضارى المروع ، فقد كانت هزيمتنا مذلة للعرب أجمعين .

وأذكر حادثة طريفة أننى ذهبت أنا والشرقاوى إلى فندق آخر غير الفندق الذى كنا ننزل به فى بغداد ، وبالصدفة وجدت جماعة كبيرة من

أساتذتى فى كلية الحقوق أذكر منهم د. على راشد ود. سليمان مرقص وغيرهما . وكانت جلستى بجانب د. على راشد فروى لى أمرا غريبا . كان هذا اللقاء فى عام ٦٩ ، وأنا كنت تلميذا للدكتور على راشد فى عام ٤٨ ، وأذكر أنى أديت امتحان الجنائى فى السنة الثانية أداء لا بأس به . ولكننى وجدت الدرجة التى نلتها ٦ من عشرين وهى أقل درجة تسمح بالنجاح بشرط أن يجبرها امتحان الشفوى . وكنت قد نجحت فلم أشأ أن أثير موضوع ضعف الدرجة فى الكلية ، ولكنى فى جلستى مع د. على راشد تبينت الأمر وذهلت له . قال د. على :

ـــ هل تعرف أنك كنت ستودى بى فى داهية ؟

ـــ لماذا ؟

ـــ الورقة التى أجبت فيها عن الجنائى ضاعت منى .

فصرخت :

ـــ ألهذا أعطيتنى ٦ من ٢٠ ؟

ـــ قلت أعطيه أقل درجة للنجاح ، وإن كان تلميذا جادا يحصل على درجة أعلى فى الشفوى .

ـــ أهذا عدل يا دكتور ؟.. على الأقل أعطنى ١٠ من عشرين . لقد ظلمتنى ظلما لن أنساه لك .

وفعلا لم أنسه .

وذهبنا إلى الكويت فى ذلك العام ، ومما لا أنساه تلك الحفاوة البالغة التى لقيها ثلاثتنا هناك سواء من وسائل الإعلام أو من الهيئات والجماعات

والأفراد على السواء .

* * *

حين تولى الرئيس الخالد الذكر أنور السادات الحكم ، تلقيت النبأ بمشاعر بعيدة كل البعد عن الرضى . وكنت فى ذلك الحين أذهب كثيرا إلى الزعيم العظيم إبراهيم باشا عبد الهادى ، فقد كنت أقيم بالمعادى فى ذلك الحين حيث كان يقيم إبراهيم باشا . وقلت له فيما قلت : إننى لا أعرف أنور السادات إلا أنه كان يرسل لى بطاقة معايدة فى كل عيد ، ولم ينقطع عن إرسالها قط رغم أننى لم أكن أشكره على هذه المعايدة ، لأننى لا أعرف له عنوانا أرسل الشكر عليه ، أو لأننى كنت أعتقد أنها بطاقة عامة ترسل للجميع . ولكنى عرفت بعد ذلك من صديق عمرى عبد الفتاح الشناوى أن أنور السادات كان على صلة بأبى وهى صلة لم أعرفها أنا إلا من الشناوى الذى كان سكرتيرا فمدير مكتب لأبى . ثم قلت لإبراهيم باشا إننى لست متفائلا مطلقا برئاسته ، فإذا بالسياسى العظيم يقول لى :

— سترى يا ثروت أن هذا الفتى هو خير من عرفت ، وسترى مصر على يديه خيرا لم نكن نحلم به .

وكنت أثق بآراء الزعيم السياسى أحد أبطال ثورة ١٩ ، والرجل الذى واكب الحياة السياسية وكان من صناعها فترة طويلة من الزمان تتجاوز نصف القرن .

ومرت الأيام وبدأت الأحداث تتوالى ، فإذا السادات سياسى داهية من الطراز الأول .

ولكن وعده بحرب فلسطين ليرد إلى مصر شرفها لم يكن يدور بخلدى

أنه سينفذه ، وقد أكد لى هذا تأكيدا لا يقبل الشك مقالات محمد حسنين هيكل بالأهرام التى كانت جميعها تجعل الحرب ضربا من المستحيل لا يتحقق إلا بقنبلة ذرية .

وفى أحد الأعوام أطلق عليه السادات عام الضباب ، يقصد بذلك أن الأمور لم تكن واضحة أمامه فى ذلك العام ولذلك امتنع عن الحرب . وأقيم معرض للكتاب فى ذلك العام وكانت روايتى الضباب معروضة فى المعرض ، فكانت الجماهير تقف أمام الرواية وتضحك .. أهذا هو الضباب الذى يقول عنه الرئيس ؟

إلى هذا الحد كنت ومعى الأغلبية الكاثرة من الشعب المصرى لا نصدق أسطورة الحرب هذه .

وكان الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ نجيب محفوظ يشاركانى هذا الرأى . وفى يوم دخلت إلى مكتب توفيق بك فى الأهرام ولم أكن عملت به بعد ، فأطلعنى على بيان مكتوب بلهجة عنيفة معناه أنه ما دام أمر الحرب مستحيلا فلا أقل من أن تنال حريتنا ونعود إلى الديمقراطية الغائبة عنا منذ سنوات .

وأمر هذا البيان معروف ، فقد عزلونا من الاتحاد الاشتراكى ، والذى وقع على قرار عزلى زميلان لى هما د. كمال أبو المجد ومحمد حامد محمود وكلاهما متخرج معى فى نفس الدفعة . وقد أرسل لى محمد حامد مع شقيق زوجتى محمد واثق يقول لى إنه يعلم أنه عزلنى من الاتحاد الاشتراكى رغم أننى لست عضوا به ، ولعل فى هذه الجملة ما يغنينى عن التعليق . ومنع السادات أسماءنا أن تظهر بالصحف ، ونشرت الصحف

أنه سينظر فى أمر كل كاتب على حدة إذا قدم الكاتب تظلما من قرار العزل هذا .

وكلمت أخي الأكبر الحبيب يوسف السباعى :

ــ طبعا ستشفع لى ليرفع عني قرار العزل وقرار الحظر .

فقال :

ــ طبعا .

ــ أرجوك ألا تفعل ، فإنني لن أقدم تظلما .

وثار بى أخي يوسف بك ، ولكنها كانت ثورة حبيبة إلى نفسي لأنها كانت صادرة عن حبه العميق لى .

وحدث فى هذه الفترة أنني كنت مرشحا لمرافقة وفد أدبى فيه عمى عزيز باشا إلى تونس ، فرفع اسمى من الوفد وأبلغت بذلك فلم أهتم أى اهتمام ، إلا أننى أسفت لأننى حرمت من مرافقة عمى عزيز خارج مصر ، فقد شاء الله على كثرة أسفاره وأسفارى ــ ألا يجمعنا بلد آخر خارج مصر حتى وفاته رحمة الله عليه .

وحدث أن ذهب الشاعر الرقيق صالح جودت ويوسف بك السباعى إلى عزيز باشا وطلبا إليه أن يقنعني بالعدول عن موقفى ، فكان عزيز باشا عظيما وهو يقول لهما :

ــ إن ثروت ليس زوج ابنتي فقط ، ولكنه عندى أنا ابنى المقرب ، وأنا على استعداد أن أحادثه فى أى شىء إلا فى مواقفه السياسية ، فهذه شأنه وحده .

واستدعى الرئيس السادات توفيق بك للقائه ، وروى لى توفيق بك

بعد ذلك أنه فى أثناء الحديث لم يذكر من أسماء الموقعين جميعهم إلا اسمى أنا .

— كيف ؟

— قال فى حدة وغضب : وثروت أباظة !

— هذا مبتدأ فأين الخبر ؟

— لم يكمل الجملة .

وقدرت أنا استنتاجا أنه كان يتوقع منى التأييد لا المعارضة بعد القدر من الحرية الذى أتاحه ، ومع علمه بمعارضتى الشديدة للعهد السابق لعهده .

وسافر عزيز باشا إلى تونس وعاد ، وبعد فترة سافر إلى الكويت ، وما هى إلا أيام حتى جاءنا خبر بأنه أصيب هناك بأزمة قلبية حادة . ورحنا نعد أنا وزوجتى للسفر فإذا بى أفاجأ فى الجوازات أننى ممنوع من السفر ، ورحمه الله يوسف السباعى مثلا أعلى فى الوفاء والإخلاص والقلب الكبير الذى يسع الناس أجمعين . ما هى إلا ساعة حتى أبلغ الجوازات برفع الحظر عن اسمى ، وسافرت وزوجتى إلى الكويت .

وكانت الأزمة حادة . ومكثنا بجوار عزيز باشا لا نتركه إلا للنوم . وحين اطمأنت نفسنا بعض الشىء طلبت منى إذاعة الكويت أن ألقى بها بضعة أحاديث ، فرأيت أن أكتب عن روعة السرد القصصى فى القرآن الكريم ، وقد جمعت أحاديثى هذه بعد ذلك فى كتابى « السرد القصصى فى القرآن الكريم » .

وحين اطمأنت نفوسنا على عزيز باشا عدنا إلى مصر ، ولحق بنا

عزيز باشا بعد أيام . وقد شاء الله أن يكرمه فاختاره إلى جواره وهو فى بيته وبين أهله . وقد فقدت بفقده أبا حانيا لى ولابنتى وابنى ، وكانت كارثة عظمى ربما مهد لها الله سبحانه وتعالى بمرضه الذى أنذرنا بالخطب قبل وقوعه .

وكنا قد انتقلنا فى هذا العام إلى القاهرة . سبقت أنا بالعودة ولحق بنا الباشا وأمينة هانم ، ليسكنا الفيلا الواقعة بأعلى العمارة التى أقيم بها أنا وأسرتى فى الدور الأول منها . توفى عزيز باشا فى ١٠ يولية عام ١٩٧٣ ، ولم يشهد الحرب .

* * *

كنت أنا وعبد الفتاح الشناوى وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمود محمد محمود بك وعبد المجيد باشا بدر ود. محمد هاشم باشا وآخرون نقضى فترة الظهيرة من رمضان فى مقهى صغير مواجه للبنك الأهلى اسمه بار الأنجلو ، وكان جميعنا صائما فكنا ندفع أثمان طلبات لا تقدم إلينا ولكننا نبرر بها وجودنا فى المقهى . وكنا نظل نتحدث فى شتى الأمور حتى يقترب موعد صلاة العصر فنقوم ونستقل سياراتنا إلى واحد من المساجد الكبرى بالقاهرة أو نتجه إلى مسجد أثرى ونقيم الصلاة جماعة ، ثم نتمشى فى الحى بعض الوقت ويكون المغرب قد آذن بالأذان فنتجه إلى بيوتنا قبيل الإفطار بدقائق . وفى أوائل أكتوبر فوجئنا بقرار من الرئيس السادات برفع الحظر عن أسمائنا وإعادة أعضاء الاتحاد الاشتراكى إليه .

وفى العاشر من رمضان سمعنا بنبأ الحرب ونحن مجتمعون بالمقهى ، وتولانا جميعا الذهول . ولا أخفى أننى أصبت بهلع فإن مصر لم تكن

تحتمل هزيمة أخرى ، ولا يعقل أن جيشا هزم هزيمة ٥ يونية سنة ١٩٦٧ يستطيع بعد سنوات ست أن يقلب الهزيمة إلى نصر .

ولكن المعجزة الإلـٰهية تحققت على يد القائد العملاق الخالد أنور السادات ، وبمعاونة رئيسنا العظيم حسنى مبارك أطال الله عمره وأيده .

ما كان أهون ما عاقبنا به أنور السادات ! لو وقع منا هذا الذى فعلنا فى عهد الرئيس السابق عليه لكان الموت أقل ما يواجهنا . وأذكر فى هذه المناسبة أن صديقا لى من الكتاب اقترح علىّ بعد هزيمة يونية أن نكتب بيانا ندعو فيه رئيس الجمهورية إلى إعادة الحرية لمواجهة عواقب الهزيمة ، وتحمست لهذا الاقتراح وكتبت البيان ووقعته فكان أول الناكصين عن توقيعه الكاتب الذى اقترحه . ولم يوقع معى البيان إلا نجيب محفوظ وحده وأبى جميع الكتاب التوقيع . ولن أذكر أسماء الذين عرضت عليهم التوقيع .. وطبعا لم أرسل البيان .

أصبحت أنا وتوفيق بك ونجيب بك من أشد المتحمسين لأنور السادات ، ورغم أننى لم أكن كاتبا ثابتا بأى جريدة فقد حرصت على نشر تأييدى الصريح للزعيم العملاق فى تحمس لا مثيل له ، وكذلك فعل الكاتبان الكبيران توفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وبعد فترة عرفنى خالى مدحت بالسيد بك مرعى ، وقد وجدت فيه إنسانا غاية فى الرقة والعذوبة كما وجدت فيه سياسيا حاذقا متمرسا .

وأبلغنى السيد مرعى أن الرئيس السادات معجب بما أكتب ، واقترح خالى مدحت أن الأوان قد آن لأعين بمكان ما فى الصحافة ، وقد وجدت الفكرة ترحيبا من السيد بك . وأبلغنا بعد ذلك أن الرئيس أيضا يرحب

بالفكرة ، وبعد قرابة سنتين علمت من السيد بك أن الرئيس سيأمر بتعييني فى مجلة الإذاعة والتليفزيون كرئيس لمجلس إدارتها . وكان د. كمال أبو المجد فى ذلك الحين وزيرا للإعلام الذى تتبعه المجلة ، والتقيت به وأخبرنى برغبة الرئيس كما أخبرنى أن الرئيس يهنئنى على روايتى « لقاء هناك » . والواقع أن لقائى بكمال أبو المجد لم يترك فى نفسى أثرا طيبا ولا وجدت منه ما كنت أتوقعه من زميل دراسة وصديق .

وأذكر أنه عرض علىّ أن أعمل معه بالوزارة فرفضت طبعا ، فراح يثير حديثا عن العقبات التى ستواجهنى فى المجلة فلم تقنعنى . وكنت فى يوم لقائه أعد نفسى لرحلة عمرة اتفقنا أن يتم تعيينى بعد عودتى منها ، واعتمرت وعدت . وكانت أمينة هانم صدقى فى لوزان بسويسرا فى ذلك الحين فاستدعت زوجتى أن تذهب إليها ، ورحبت زوجتى بالدعوة فهى تحب السفر إلى الخارج حبا جما ، وتحرص عليه حرصا شديدا مهما تكن العقبات . وسافرت وبقيت أنا . وشاء الله أن يخرج كمال أبو المجد من الوزارة ، ويوقع قرار تعيينى أخى الأكبر وواحد من أقرب الناس إلى قلبى يوسف السباعى . وأبلغت زوجتى بسويسرا أننى عينت وأتولى رئاسة مجلس إدارة الإذاعة والتليفزيون ، ولن أذكر عن الفترة التى قضيتها بها شيئا ولكن ما قاله لى عميد الصحافة العربية المعاصرة مصطفى بك أمين :

— كيف استطعت أن تجعل من الفسيخ شربات ؟

وأحمد الله .

وحدث أن كتب الأستاذ جلال الحمامصى مقالا يشكك به فى نزاهة

الرئيس الأسبق . ووقف السادات فى خلق الفلاح الأصيل يدفع التهمة فى إصرار دون أن يدفع الحجة بالحجة ، وإنما كان دفاعا عن صديق له ، مهما يكن الدفاع نوعا من الخطابة وليس تفنيد وقائع .

وقلت فى نفسى كنا نكتب رمزا حين كنا لا نستطيع أن نصارح ، واليوم أنا مسئول وحدى عن المجلة التى أكتب فيها . فمتى أقول الحق الصريح إذا لم أقله اليوم ؟

وكنت أنتظر توفيق بك الحكيم فى صباح أحد أيام الجُمع بالطابق الأعلى من فندق النيل ، وكنا قد اتخذنا منه مكانا لندوتنا . ويبدو أننى ذهبت مبكرا فوجدت نفسى أُخرج بعض أوراق وجدتها فى جيبى بها كتابات ولكن بها أيضا فسحات من البياض تتيح لى الكتابة ، فرحت أقطع الانتظار بكتابة المقالة التى غيرت مجرى حياتى . وقد كانت أول مقالة صريحة تظهر فى الصحافة العربية تهاجم الطاغية . وحين جاء توفيق بك كنت قد انتهيت من كتابة المقال ووضعته فى جيبى ولم أذكر عنه شيئا لأحد ، حتى ذهبت فى صباح السبت إلى مكتبى فى المجلة ..

وإنى أعتقد أن من حقك علىّ أن تقرأ هذا المقال فقد بَعُدَ العهد به ، فهو قد نشر فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٦ ونحن فى أكتوبر سنة ١٩٩٢ ، وإليك المقال :

« وفى أى شيء صدق ؟!

أية غريبة أن يقال ما يقال ؟! وما المال وقد سرق أمننا ، ولص كرامتنا ، وامتص دماء أبنائنا ، وأهدر على رمال سيناء شرف مصر والعرب ، وتاريخ أمة ومستقبلها ..

وفى أى شيء صدق حتى يصدق فى ذمته ؟!

قال ارفع رأسك يا أخى . وحطم كل رأس فكر فى الارتفاع أو فكر فقط . وأبى أن يجعل أحدا من الناس أخا ، بل أرغم الجميع أن يكونوا عبيدا له أو هم أعداء .

قال ديمقراطية ، ثم فشا وحده مسعورا ، منفردا بالحكم ، مسئولا وحده عن كل خفقة نفس فى البلاد .

وقال قضينا على الإقطاع ، فإذا بأصحاب الملايين فى عهد الرأسمالية كانوا لا يتجاوزون أصابع اليدين عددا ، فأصبحوا خمسمائة نتيجة لعهده ، ثروة الواحد منهم مهما تبلغ من الضآلة تلتهم ملايين الإقطاع جميعا والإقطاعيين .

وقال ثورة بيضاء ، ثم أهدر دماء الشباب فى حروب اليمن وحربى سيناء من أجل مجده الشخصى ، ومن أجل خراب مصر فى دمائها ومالها وكرامتها .

وأسال الدماء فى خسة غادرة مجرمة وراء أسوار السجون والمعتقلات .

قال الشرف وهدد الرجال فى عفة زوجاتهم وشرف بناتهم وأخواتهم .

قال تكافؤ الفرص وأغدق الأموال على أبنائه ، حتى لقد كان الواحد منهم يلهو بقيادة طائرة لا يحلم أغلب الشعب أن يركبها مرة فى حياته ، وتقدمت ابنة له تفكر فى شراء أرض يتجاوز ثمنها مائة وخمسين ألف جنيه ، ولقب ابنه بالمليونير فى إذاعة لندن ، وسكب أموال الدولة على

إخوته وعلى كلابه من ماسحى أحذيته ولاعقى نعاله ، فهم ينبحون باسمه حتى اليوم وقد فجعتهم فيه الفاجعة ، وزالت من أفواههم دماء الشعب التى أتاح لهم أن يمتصوها . تؤيدهم فى نباحهم فئة أخرى اعتدى عليهم فى المعتقلات وجعل زوجاتهم بلا موئل لطول حبس الأزواج ولحبس المال عنهم . ومع ذلك ينبحون باسمه مع كلابه النابحة .

لأن الحكم الجديد . قال الله .

وقال الحرية .

وقال القانون

ونفذ ما قال وانتصر .

فى أى شىء صدق ؟!

قال الرجل المناسب فى المكان المناسب ، ثم اختار أهون الناس وجعل منهم رؤساء على العمالقة ، ووضع فى أغلب المناصب رئيسا جاهلا لأن الجهلاء هم علماء النفاق ، فانهار العمل فى الحكومة وفى القطاع العام . وحين قال محافظ من علمائه :

أعط القانون إجازة .

رقى إلى وزير لأنه عبر عن شعار الدولة .

فى أى شىء صدق ؟!

دعا إلى الاشتراكية . وعاش .. وعاش خدمه والمحظوظون من أتباعه عيشة تتضاءل عندها عيشة الفجار من العاهرين فى الرأسمالية . فسمعنا عن فواكه تأتى بالطائرات ، وعن سيارات نقل تحمل الفراء والسجاجيد . ويعلن هذا علينا حتى يغضب على الفاعل ، ويستر علينا

حتى يترضاه ويضع رأسه تحت قدميه . ألا إلى غير رجعة يا زمن الهمس والصراخ ، والنوم المفزع ، والقلق الشائع ، والخوف المبيد ، والعرض المباح ، والدم المسفوك ، والشرف الجريح ، والتاريخ الممزق ، والأمل المظلم ، واليوم الكالح ، والغد العبوس ، والحق المضاع .

ويقولون اكتموا على السرقات أن تذيع ، فإنها إن شاعت أحجمت أموال العالم عن مصر والانفتاح . جهلوا الحقيقة ، لن تأتى الأموال وأصحابها يعرفون أن اللصوص هنا تتخفى وراء الأستار تحمل معها التشكيك فى أمانة بلادنا . يوم تنكشف الحقائق ويعرف العالم أننا أصبحنا على الطريق القويم ، شريفة أيدينا ، واثقة نفوسنا ، مطمئنا اقتصادنا ، يأتى إلينا أصحاب الأموال شرفاء واثقين مطمئنين .. والحق دائما بالدول أجدر .

ولست بحاجة أن أذكر الدوى الذى تفجر عن هذا المقال . وكان الأستاذ حسن عبد المنعم رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون ، وكانت مجلة الإذاعة تابعة له تبعية اسمية فأرسل إلىّ بكلمة لأنشرها مؤداها أن ما كتبته لا يعبر عن رأى الاتحاد ، فنشرت الكلمة وعلقت عليها فى نفس الصفحة بما معناه أن أصابع الكتاب حرة لا يتخللها أصابع الآخرين من ذوى المناصب الحكومية أو من غيرهم .

وهاج يوسف بك السباعى وكان وزيرا للإعلام والمجلة تابعة له طبعا وقال لى :

ـــ هل أكتب أنا هذا الكلام ؟

ـــ ولماذا تكتبه أنت ؟ وهل كتبت أنت هارب من الأيام وقصر على

النيل وشيء من الخوف . أنت تعرف قدر حبى إياك ولكن هذا لا يعنى مطلقا أن أكتب بقلمك .

وبيعت النسخة من المجلة فى هذا اليوم بخمسين قرشا وكان ثمنها الرسمى عشرة قروش . وعرفت أن الكثيرين وضعوا المجلة فى إطار وعلقوها فى بيوتهم ، وأصحاب المحلات علقوها فى محالهم .

وظلت المقالة حديث الناس فترة طويلة . وفوجئت يوما بيوسف السباعى يستدعينى إلى مكتبه فى الوزارة ويفاجئنى بقوله :

— ما رأيك أن تأتى للعمل معى وكيلا للوزارة ؟

فقلت فى حسم :

— لا يمكن ، أستقيل أحسن .

— أترفض العمل معى ؟

— أرفض أن أترك الكتابة ، وأنا بهذا أحمى عهد السادات الذى يذيع أنه يتيح الحرية للكتّاب ، ثم ينقل كاتبا إلى عمل إدارى لأنه كتب مقالا لم تأمر الحكومة بكتابته .

— يا أخى إنك لم تعين إلا بطلوع الروح .

— ما زال عندى بضعة أفدنة أبيعها ولا تحمل همى .

— الوزراء غاضبون وثائرون .

— هذا شأنهم .

وفى يوم أبلغت أن أحضر جلسة مجلس الشعب التى سيلقى فيها الرئيس السادات خطابه ، وذهبت ووجدت جميع رؤساء مجلس الإدارة للصحف والمجلات قد دعوا إلى الجلسة وكان معنا عمى فكرى باشا رحمه

الله . وجلسنا فى مقصورة الملكة بالدور الثانى من الشرفة ، وألقى الزعيم خطابه الذى ألغى به المعاهدة التى كانت قائمة بين مصر وروسيا . وفى أثناء الجلسة صعد إلينا من أخبرنا أن الرئيس يريد لقاءنا بعد الخطاب فى حجرة رئيس المجلس . وانتهى الخطاب وذهبنا إلى لقاء الرئيس ، وكنت حريصا أن أقود خطوات عمى فكرى نظرا لضعف نظره ، وكان الزعيم السادات واقفا حين دخولنا فوقفنا حوله بعد أن صافحنا وقال :

ـــ نحن قلنا ما نريد قوله ولا أرى ضرورة لمهاجمة روسيا .

فوافق الحاضرون على رأيه ، ثم التفت إلىّ قائلا :

ـــ يا ثروت اكتب مقالة أخرى أحسن الجماعة زعلانين . اكتب مقالة أخرى .

قلت :

ـــ لقد كتبت مقالة بعدها ، هل قرأتها سيادتك ؟

قال فى سماحة :

ـــ قرأتها ، إنما المقالة الأولى لم أقرأها .. اكتب مقالة أخرى .

ـــ أمرك .

وخرجنا ، وسرت مع عمى فكرى باشا وقال لى :

ـــ ماذا ستفعل ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ إنه لم يستدعنا جميعا إلا ليقول لك ما قال .

ـــ هذا واضح .

ـــ امدح الرئيس السابق .

ـــ الموت أهون .

وذهبت إلى البيت وأدركت أننى إذا ما حاولت النوم فإن النوم سيستعصى علىّ ، فأمسكت بالقلم وكتبت ما معناه : فى ظل الحرية التى أتاحها لنا أنور السادات سننسى ما فات ، ونحاول أن نقيم ما تحطم من نفوسنا .

وكان مقررا أن يسافر الصحفيون مع الرئيس السادات إلى السعودية ، وسافرت فطالعنى فى السعودية أمر لم أكن أتصور أننى ملاقيه . فقد تعرفت فى الطائرة بالدكتور محمد عبده يمانى وزير الإعلام حينذاك ، وحين وصلت إلى الفندق لم تمض إلا بعض الساعة وحدثنى فى التليفون من يبلغنى أن وزير الإعلام فى انتظارى على الغداء وقد دعا معى الأستاذ أحمد زين . وذهبنا وهناك التقيت لأول مرة بعالم الدعوة الإسلامى العالمى فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وفرحت بلقائه كل الفرح وكنت قد شهدته يخطب جموع الحجاج فى البيت الحرام ، وكانت الدمعات تتقاطر من عينىّ ومن عين زوجتى ونحن نستمع إلى خطابه ، وقلت له هذا فإذا هو يقول فى خفة ظل لا تتأتى إلا له :

ـــ أى خطبة يا مولانا . سمع علىّ سمع .

وإذا هو يلقى علينا مقالتى « فى أى شىء صدق » من الذاكرة فقد حفظها عن ظهر قلب ، ولا أحد يتصور ما داخلنى من شعور فى هذه اللحظات ، فما تصورت أن أسمع كلامى محفوظا من أحد مطلقا فما بالك وحافظه هذه الظاهرة التاريخية فى العالم الإسلامى .

وقال الشيخ الجليل :

— لقد قرأتها ثم ظللت أنظر إليها فما رفعت عنها عينى إلا وقد حفظتها جميعا .

وكان فى رفقة الرئيس السادات واحد من أنسباء الرئيس السابق ، وحاول أن يقوم ببعض السخافات فى خفية عنى طبعا ولم يحاول أن يواجهنى ، فتجاهلت أمره وكأنه شيء غير موجود . وقد كان كذلك بالنسبة لى فعلا .

وعدنا إلى القاهرة ، وكان من المقرر أن يحدث تغيير عام فى الوزارة وفى الصحف على السواء ، فى نفس الوقت الذى كنا نستعد فيه للسفر فى رحلة إلى أوروبا مع الرئيس . وظهر التأليف الوزارى الجديد فعلا وخرج يوسف السباعى من الوزارة وجاء مكانه جمال العطيفى ، وبدأت التغييرات فى الصحافة وكان رئيس الوزراء الرجل المهذب الإنسان ممدوح سالم .

وبينما كنت فى مكتبى بالمجلة طلبنى رئيس الوزراء وحدد لى موعدا للقائه ، يخيل إلىّ فيما أذكر أنه كان فى نفس اليوم .

ولا أنسى الجزع الذى بدا على أسرة المجلة ، الأمر الذى أسعدنى ولم أتصور أن يتغير مكانى بعد أن طلب منى الرئيس أن أكتب مقالة أخرى . ولكننى على كل حال لم أكن مهتما . وذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء فوجدت معه الأستاذ إحسان عبد القدوس الذى كان إلى هذه اللحظة رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، فانتظرت — وقليلا ما انتظرت — ودخلت إلى ممدوح بك وكان رقيقا إلى درجة أنه لم يجلس إلى مكتبه وإنما جلس إلى الأريكة وجلست بجانبه ، وقال لى دون مقدمات :

— الرئيس يريد أن تكون كاتبا فى الأهرام .

ودون ريث تفكير قلت :

— قوى .

— عظيم .. إذن لا تخبر أحدا واستمر فى عملك حتى يصدر القرار .

— والسفر إلى ألمانيا ؟

— إذا لم يصدر القرار قبل السفر ، رافق الرئيس .

وودعنى الرجل فى أدب جم وخرجت .

وتجمع بعض المحررين فى المجلة وراحوا يسعون لدى رئيس الوزراء ولدى سيد بك مرعى رئيس مجلس الشعب ولدى الرئاسة أن أبقى فى مكانى ، مما جعلنى أكلم سيد بك مرعى وأرجوه ألا يتغير قرار نقلى للأهرام ، وأن الذى يقوم به بعض المحررين يتم دون علم منى . فقال سيد إنهم يعرفون ذلك على وجه اليقين والجمع هنا تفيد الرئيس لا شك فى ذلك .

وحدث فى هذه الفترة أن التقيت بالسيد بك مرعى ربما فى نفس يوم لقائى برئيس الوزراء ، وعرفت منه أن يوسف السباعى سيكون رئيسا لمجلس إدارة الأهرام .

فحين خرجت من مقابلة رئيس الوزراء حرصت أن أكلم اثنين : صديق عمرى على حمدى الجمال وأخى الحبيب يوسف بك . وجدت على الجمال بسهولة وقد فرح رحمه الله بنبأ ذهابى معه إلى الأهرام فرحا هائلا . أما يوسف بك فعلى غير العادة لم أجده فى أى مظنة من مظانه التى أعرفها جميعا ، فلم يطلبنى إلا بعد ما يزيد عن ساعة فقلت له :

ــ أنا وراك وراك .

فضحك وقال :

ــ ورائى فين ؟

ــ أنا ذاهب معك إلى الأهرام .

ــ ماذا ؟

ــ أخبرنى رئيس الوزراء اليوم أن الرئيس يريدنى كاتبا فى الأهرام .

ــ صحيح ؟

ــ صحيح .

ــ وأنا كيف عرفت أنى ذاهب إلى الأهرام ؟

ــ معلوماتى الخاصة .

ــ يعنى من أخبرك ؟

ــ المفروض أنه سر .

ــ علىّ أنا ؟

ــ لك حق . ليس عندى سر دونك . أخبرنى سيد مرعى . يكفى ؟

ــ يكفى جدا .

طلبت من مكتبى فى المجلة الوزير الجديد جمال العطيفى لأهنئه بالوزارة ، وصاح فى فرح :

ــ أخيرا سنعمل معا .

ودهشت أن ذهابى إلى الأهرام ما زال سرا عليه ، فقلت :

ــ كم كنت أتمنى ذلك .

ــ تتمنى . وماذا حدث لهذا التمنى ؟

ــ أنا ذاهب إلى الأهرام .

ودهش دهشة واضحة فى التليفون ظهرت من ألفاظ كثيرة . ثم سألته عن السفر إلى أوروبا فقال لى : إننى رسميا ما زلت فى مكانى . وأن على أن أمضى فى عملى كأن شيئا لم يكن .

وفعلا سافرنا إلى ألمانيا ليبدأ الرئيس رحلته إلى أوروبا . وفى اليوم التالى لوصولنا عرفنا أن قرارا قد صدر بتعيين الأستاذ يوسف السباعي رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، والأستاذ أحمد بهجت رئيسا لمجلس إدارة الإذاعة ، ولم يذكر اسمى فى شىء من القرارات .

وكانت رحلتى هذه رحلة ممتعة ، فأنا غير مطالب بعمل أو بكتابة شىء ، وكل ما على أن أتنزه . وكان على حمدى الجمال معنا فطلب إلىّ ونحن فى الرحلة أن أتولى القسم الأدبى فى الأهرام فلم أمانع ، وحين عدنا مرت بضعة أيام ثم استدعانى يوسف السباعي ليخبرنى أن قرار نقلى إلى الأهرام قد صدر .

وبدأت عملى بالأهرام ولم يمر طويل وقت حتى فجعت بالرصاصة الغادرة المجرمة التى أصابت رجلا من أعظم الرجال الذين عرفتهم وأحببتهم في حياتى ، يوسف السباعى . كان يوسف السباعى فى عهد الطغيان هو مانعة الصواعق عن الأدباء ، ولولاه لدُمر الأدباء فى مصر تدميرا كاملا شأن كل ما هو كريم مشرق فى حياتنا ، رحمه الله رحمة واسعة وتقبله بين الصديقين والشهداء .

* * *

دق جرس التليفون فى بيتى فى أحد الأيام وكان المتحدث د. طلبة

عويضة أمين عام الحزب الوطنى بالشرقية ، وأخبرنى أن الرئيس السادات يريدنى أن أنضم إلى الحزب الوطنى لأنه يريد أن يرشحنى لمجلس الشورى . ولما كنت مؤيدا كل التأييد للسادات فلم أجد ما يمنعنى من الانضمام ، وأرسل إلىّ الدكتور طلبة أوراق العضوية وانضممت إلى الحزب الوطنى .

وكلمت زميل دراستى الوزير حلمى عبد الآخر أن يرشح الحزب عبد الفتاح الشناوى فى المطرية ووعد خيرا . وعلمت بعد ذلك أن اسمى عرض فى اجتماع الهيئة البرلمانية لمجلس الشعب فى الشرقية . كان الحزب قد ارتأى أن يعرض أسماء المرشحين فى كل محافظة على أعضاء مجلس الشعب بها . وكان الحاضرون فى الجلسة خمسة وعشرين عضوا عرفت أنهم وافقوا بالإجماع على ترشيحى فى مجلس الشورى ، فحمدت الله على هذه الثقة . وسافرت لقضاء الصيف بالإسكندرية ومن هناك وقبل ظهور الترشيحات بيوم واحد ، طلبت أخى المرحوم حلمى عبد الآخر لأطمئن على ترشيح عبد الفتاح الشناوى فقال لى :

ـــ لن يظهر اسمه فى الترشيحات ، ولن يظهر اسمك أنت أيضا .

فضحكت وقلت :

ـــ أنا لم أطلب الترشيح لنفسى .

فقال :

ـــ الرئيس السادات قال إن ثروت أباظة لا يجوز أن يرشح عن دائرة واحدة فى القطر المصرى ، بل من حقه أن يمثل مصر كلها ، ولذلك فقد قررت أن يكون اسمه بين المعينين لا بين المرشحين .

وقد سعدت بهذا التقدير وحمدت الله أن وقانى من جهد الانتخابات المضنى .

وفى هذه الأثناء كان اتحاد الكتاب قد أعلن أنه يرجو الرئيس السادات الموافقة على أن يكون الرئيس الفخرى للاتحاد . ووافق الرئيس السادات وكان رئيس الاتحاد فى ذلك الحين توفيق بك الحكيم وكنت نائب الرئيس ، وحدد لنا الرئيس السادات موعدا للقائه وإهداء وثيقة الرئاسة الفخرية له فى منزله بالمعمورة وكنا فى رمضان ، وتناول أعضاء الاتحاد طعام الإفطار بنادى السيارات بالإسكندرية ، وكنت قد أعددت كلمة ألقيها أمام الرئيس . وبعد الإفطار قصدنا إلى استراحة الرئيس واستقبلنا بكثير من الحفاوة وأحببت أن أمازح توفيق بك الحكيم الذى أجلسه الرئيس بجانبه ، فذهبت وملت على أذن الرئيس السادات فإذا بالرجل العظيم يهب واقفا حتى لا أحادثه وأنا واقف وهو جالس ، فقلت له بصوت يسمعه توفيق بك :

ــ أتعرف سيادتكم لماذا أنابنى توفيق بك فى إلقاء كلمة الاتحاد ؟

ــ لماذا ؟

ــ لأنه سيكتب ولا ينال أجرا على ما كتب .

وضحك الرئيس ملء فمه وقال لتوفيق بك :

ــ لماذا يعاكسك أبناؤك يا توفيق بك ؟

وضحك توفيق بك .

وألقيت كلمتى وعلق عليها الرئيس السادات تعليقا كريما ، ومن طريف ما دار حول الكلمة أن عضوا من الاتحاد مشهوراً بتفاهته سألنى :

هل أنت الذى كتبت هذه الكلمة ؟ فلم أجب عن سؤاله وإنما رويته على سبيل الفكاهة لصديقى سعد وهبة ، فضحك وقال :

— إن لم يكن أنت كاتبها فلا بد أن يكون طه حسين هو الذى كتبها ، فهذا الأسلوب لا يكتبه إلا هو .

وقد رويت هذه الواقعة لأظهرك على مدى التفاهة التى قد يصل إليها بعض مدعى الأدب .

ومن طريف ما حدث فى ذلك اليوم أن الرئيس السادات بعد انتهاء مراسم الاحتفال ظل بيننا يجوس الحديقة متحدثا للأدباء ، وأذكر أننى قلت له :

— يا سيادة الرئيس أنت أول إنسان فى التاريخ يضحك على اليهود .

فضحك وقال :

— بيجن يقول دائما : لن أنسى ما فعلته بى عمرى كله .

قلت له :

— يا سيادة الرئيس سيادتك غضبت من البيان الذى كتبناه ، بينما كان البيان من ضمن علامات التمويه التى استعملتها سيادتك بذكاء شديد قبل المعركة .

فضحك وقال :

— فعلا .. فعلا لك حق .

ولم يتركنا الرئيس إلا بعد أن رجوته أن يصعد إلى البيت حتى يصيب قدرا من الراحة بعد هذا الجهد ، فقال :

— شكرا .. لك حق .

وصعد .

ولقيته بعد ذلك فى أوائل أيام اجتماع مجلس الشورى فى لقاء استدعانى إليه ، فازددت به إعجابا فى الاجتماع الذى لم يكن معنا فيه ثالث .

وانتهى المصيف وعدت إلى القاهرة ، وفى يوم بينما كنت فى مكتبى بالأهرام طلبنى أخى أنيس منصور فى التليفون وقال لى : إن الرئيس السادات يهنئك بتعيينك فى مجلس الشورى . فشكرت صديق العمر ورجوته أن يشكر الرئيس باسمى .

أما كلماتى فى مجلس الشورى فقد نشرت بالجرائد ولا أستطيع أن أجمعها ، ولا أرى داعيا لذلك أيضا .

ولكن وقعت قصة طريفة أجد من حقها أن أنشرها . فى إحدى الجلسات تكلم أخى عبد الرحمن الشرقاوى وكنت أعارض كل ما قاله ، فوقفت بعد جلوسه لأرد عليه وأذكر أننى شددت عليه النكير وتكلمت بحماسة معارضا له . وجلست وكان عبد الرحمن يجلس ورائى فى المجلس ، فغمز كتفى وقال :

ـــ ألا تحب أن تشرب فنجان قهوة ؟

ـــ أحب جدا .

ـــ هيا بنا .

وخرجنا أنا وهو نرتشف القهوة ونتحدث فى كل شىء إلا ما دار بيننا فى الجلسة . وكان الأعضاء كلما رأونا دهشوا وضحكوا وأبدوا لنا تعجبهم من جلستنا معا ، فكنا نقول لهم : اختلاف الرأى شىء ،

والصداقة شيء آخر .

* * *

فى يوم مصر الحزين الذى فقدت فيه زعيما من أعظم زعمائها كنت فى سويسرا ، والله وحده يعلم كم بكيت وأمليت رثاءه بالتليفون من لوزان . ولم أطق أن أكمل الفترة التى كنت مقررا أن أبقى فيها خارج مصر حزنا على السادات ، فقطعت إجازتى وعدت إلى القاهرة .

وكان د. صبحى عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى فى ذلك الحين قد أصيب فى ساقه فى يوم المنصة المشئوم فبادرت بزيارته ، فأخبرنى أن الرئيس مبارك يريد أن يرانى .

وكنت قد التقيت بالرئيس العظيم فى اجتماعات الحزب الوطنى وتكلمت أمامه حين كان نائبا لرئيس الجمهورية ، ومن أفضاله علىّ وعلى كتّاب مصر أننى طلبت فى أحد الاجتماعات أن تعفى الحكومة الكتاب الأدبى من الضرائب أسوة بالكتاب الجامعى ، وكانت حجتى أن الكتاب الجامعى سيوزع حتما أما الكتاب الأدبى فمصيره مجهول .

وفى الاجتماع التالى أعلن السيد الرئيس مبارك :

— وأعفينا الكتاب الأدبى من الضرائب ، علشان خاطر الأستاذ ثروت .

وأذكر أننى تكلمت أمامه بضع مرات وكنت ألمح فى وجهه رضاءه عن كلماتى .

فحين أخبرنى د. صبحى أن الرئيس يريد أن يرانى ، بادرت بطلب المقابلة . وبعد أيام قلائل كلمنى صديق لى على صلة بالحزب الوطنى

ليخبرنى أن الرئيس سيرانى فى الساعة الواحدة من يوم كذا .

وقبل الموعد بربع ساعة كنت فى مقر الرئاسة فلقينى الرجل الذى أصبح من أحب أصدقائى أخى جمال عبد العزيز سكرتير الرئيس ، وفى ابتسامة مشرقة قال لى :

— إنك ستقابل الرئيس ، ولكن لماذا تأخرت ؟

— كيف ؟ إن موعدى الساعة الواحدة .

— بل موعدك الساعة الحادية عشرة .

— لقد كلمنى فلان وأخبرنى أن موعدى الساعة الواحدة ، وليس من المعقول أن أتأخر عن موعد مع رئيس الجمهورية .. وأنا أدور بالسيارة منذ نصف ساعة حول المقر حتى أحضر قبل الموعد بربع ساعة .

وضحك جمال بك وقال : إن الذى كلمك لا شأن له بمواعيد الرئيس ، وعلى كل حال حصل خير .

ولقيت الرئيس العظيم ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر أننى أحظى بثقته لأنه أدرك أننى لا أكذبه فى شىء قط ، وأدرك أيضا أننى غير طامع فى شىء على الإطلاق .

وكلفنى الرئيس العظيم بعد ذلك ببعض مهام أرى من حقه على أن أبقيها طى الكتمان ، فقد كانت جميعها لمصلحة مصر ومصر وحدها ، وفى يوم من الأيام فوجئت بالأستاذ سامى متولى صديقى وزميلى بالأهرام يكلمنى فى بيتى :

— مبروك !

— مبروك ماذا ؟

ـــ ألا تعلم ؟

ـــ لا والله لا أعلم .

ـــ لقد رشحك الرئيس لتكون وكيلا لمجلس الشورى .

ـــ أنا لا أعرف شيئا عن هذا مطلقا .

وكان موعد نومي فى القيلولة قد حان ، فدخلت حجرتى ونمت كأننى لم أسمع شيئا ، وحين صحوت أبلغنى أهل بيتى أن الأستاذ كمال الشاذلى سأل عنى ، وقبل أن أطلبه طلبنى وقال وهو يضحك قائلا :

ـــ أنت نائم يا أخويا ؟

فضحكت وقلت :

ـــ هل هناك مانع ؟

وأبلغنى بنبأ ترشيحى لوكالة مجلس الشورى التى ما زلت أشغلها حتى اليوم .

أيها القارئ العزيز :

هذه لمحات من حياتى ورأيت أن أقدمها بين يديك قبل أن يجف منى القلم وترتعش منى اليد . ربما أكون قد أخفيت شيئا ولا شك أيضا أننى نسيت أشياء ، ولكننى أحسست أن من حق القراء الذين وهبوا لى رضاءهم الذى أحيا به وله ؛ أن يعرفوا بعض الخوافى من حياتى . وأحمد الله إليهم أننى اليوم لا أطمح إلى أى منصب ، فإن أى منصب سيقف حائلا بينى وبينهم إلا هذا المنصب الذى أشغله اليوم ، والذى أقنع به كل القناعة لأنه يتيح لى أمرين هما كل ما أعيش له : أولهما أن أخدم فى مجلس تشريعى مصر التى أعبدها بعد الله عبادة محب يقدس أرضها وسماءها

وشعبها وهواءها وكل ما فيها ، أما الأمر الثانى فهو أن أظل ممسكا بهذا القلم ليكون صلة بينك وبينى ، وهى صلة أعتبرها أنا أكرم الصلات وأشرفها وأرفعها قدرا فى صلات البشرية جميعا ، والحمد لله على الكثير الكثير الذى أعطى والقليل الذى منع ، له الشكر والفضل على الحالين تقدست آلاؤه .

ثروت أباظة

الأهرام فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩٢

الموافق ٣ ربيع ثانى سنة ١٤١٣

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

روايات للمؤلف

١ ـ ابن عمار .
٢ ـ هارب من الأيام .
٣ ـ قصر على النيل .
٤ ـ ثم تشرق الشمس .
٥ ـ لقاء هناك .
٦ ـ الضباب .
٧ ـ شيء من الخوف .
٨ ـ أمواج ولا شاطئ .
٩ ـ جذور فى الهواء .
١٠ ـ خشوع .
١١ ـ القربان .
١٢ ـ الغفران .
١٣ ـ بريق فى السحاب .
١٤ ـ لمحات من حياتى .

رقم الإيداع : ٩٣/٧٦٩٨
الترقيم الدولى : 1 - 0827 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه